

الدّاعي

مجلة عربية إسلامية شهرية

تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم ديوبند ، يوبي ، الهند



ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ (القرآن الحكيم)

ISSN 2347-8950

العـــــدد : ٦ ، السنـــــة : ٥١

جمادى الآخرة ١٤٤٨هـ ، نوفمبر – ديسمبر ٢٠٢٦م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني

رئيس الجامعة

رئيس التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة: ٦٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٦٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولارًا
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولارًا

عنوان المجلة على الانترنت

Web : https://darululoom-deoband.com/arabicmagazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس التحرير مجلة الداعي

دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)

الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor

AL – DAIE

Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

- الدنيا مزرعة الآخرة — التحرير — ٣

كلمة العدد

- هلاك الأمم ..... الداء والدواء — محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري — ٤

الفكر الإسلامي

- من نفحات القرآن الكريم — العلامة الشيخ أشرف علي التهانوي رحمه الله — ٩

دراسات إسلامية

- نظرات في الحديث — الدكتور محمد عبد الرؤوف — ١٦
- من الإعجاز البياني في القرآن الكريم — رئيس التحرير — ٢٢
- الإلحاد والزندقة: الحقيقة والموقف الإسلاميّ — الأستاذ أختر إمام عادل القاسمي — ٣٢
- التوبة — الدكتور ياسر عبد الرحمن — ٤١

إصدارات حديثة

- مئة قصة تربوية لطلاب اللغة العربية — الدكتور المفتي اشتياق أحمد القاسمي — ٥١

إشراقة

- من إعجاز لغة القرآن — أبو عائض القاسمي المباركفوري — ٥٦

كلمة المحرر

الدنيا مزرعة الآخرة

الإسلام دين الله الخالد الذي كتب له البقاء ما بقي الليل والنهار، وهو الدين الصالح لكل زمان ومكان، ولكل عصر ودهر، ومن هنا لم يكن الإسلام مفصولا عن الدولة، ولا كانت الدنيا مفصولة عن الآخرة، ومن هنا ينقم كثير من الأنظمة العالمية التي أفئدة أصحابها هواء الإسلامَ وتوجيهاته السامية الخاصة بالدنيا، ولاترضى إلا بالفصل بين الدين والدولة. ولن يستتب الأمن والسلم في العالم البشري إلا بالتعانق بين الدين والدنيا. وكل ما يشهده العالم من الفوضى، والميوعة الخلقية، والهنات الاجتماعية مرده إلى هذه الفكرة المبتورة المزعومة الضالة المضلة الصماء البكماء العمياء.

وأما الإسلام فقد جعل الدنيا مزرعة الآخرة، فلا فلاح لمن لايستغلّ الدنيا لآخرته، فالمسلم يكسب آخرته في دنياه هذه. ويبدو بعض الأعمال الروتينية البسيطة أنها دنيا محض، وقد رتب الإسلام عليها الأجر والثواب والعفو والغفران، إذا أتاها المرء على وفق توجيهات الشريعة الإسلامية، فالطعام والشراب مثلًا، من أعمال الدنيا، ولأجل البقاء فيها، ولكن إن أحسن المرء القيام به وأخلص نيته وابتغى به وجه الله تعالى والتقوِّي على عباده، جلب الخير والثواب والفلاح في آخرته، فيقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من أكل طعامًا فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه» (رواه الترمذي،برقم:٣٤٥٨). ويمسح رأس اليتيم، وهو من أفعال الدنيا، وينال عليه الأجر في الآخرة،فروى الإمام أحمد في مسنده (برقم: ٢٢١٥٣) عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله، كان له بكل شعرة مرت عليها يده حسنات، ومن أحسن إلى يتيمة أو يتيم عنده، كنت أنا وهو في الجنة كهاتين»، وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى.

والصدق والأمانة في التجارة من أعمال الدنيا، ويصلح به آخرة صاحبها، وتسمو منزلته فيها حتى كان مع النبيين والصديقين والشهداء، فيقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء» (رواه الترمذي، برقم:١٢٠٩).

فليست الدنيا عبثا؛ بل هي مزرعة الآخرة، وليس من الحق أن يترهب فيها المرء وينقطع عن الدنيا إلى الجبال والأوغاد؛ بل الذي يخالط الناس في الدنيا، ويصبر على أذاهم أحب إلى الله تعالى ممن لايخالطهم ولا يصبر على أذاهم، فيقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «المسلم إذا كان يخالط الناس، ويصبر على أذاهم خير من المسلم الذي لايخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» (رواه الترمذي برقم:٢٥٠٧).

[التحرير]

(تحريرًا في الساعة السابعة ليلا من يوم الثلاثاء: ١٦/٤/١٤٤٨هـ=٢٩/٩/٢٠٢٦م)

هلاك الأمم .... الداء والدواء

خلق الله تعالى آدم عليه السلام وأخذ من ظهور بنيه ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، ثم لبث آدم عليه السلام في الجنة ما شاء الله تعالى أن يلبث، ثم أمر بإنزالهم إلى الأرض، واستخلفهم فيها في تنفيذ أوامره ونواهيه، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨]، وقال: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف:٣٥].

وكان من ذرية آدم عليه السلام من سلك طريق النجاة والفلاح، ومنهم من وقعوا فريسة الأهواء، و اتبعوا سبل الشيطان وإغواءه، فكان عاقبتهم خسرًا. والدارس المتأمل في الأمراض والأدواء التي نخرت الأمم، وفتت في عضدها، وقلبتها رأسًا على عقب، وجعلت عاليها سافلها، يجدها ثلاثة: اثنان منها أساسيان، والثالث نتيجة طبيعية لهما، وهي الجهل والظلم والعبودية.

فالجهل داء دوي عضال فتاك يبعد البشر عن معرفة الأشياء وحقائقها وتمييز بعضها من بعض، وما يقابله من العلم مما ميز الله تعالى به البشر، فإذا حرِم البشر العلم وابتلي بالجهل، والتحق به إلى صفوف الحيوانات والبهائم؛ فإنه يفقد القيمة ويُحرم الوزن والثقل في المجتمعات البشرية، ولم ترتقِ أمة من الأمم في دينها ودنياها إلا بالعلم، ولم تتخلف إلا بالجهل والخواء العلمي، والبعد عن المعرفة و الثقافة، التي تميزه عن قطيع البهائم والبكماوات. ومن هنا شنع القرآن الكريم في كثير من آياته على الجهل والخواء العلمي، وعابه على أهله، واستعاذ منه الأنبياء والرسل عليهم السلام، سواء كان بمعنى القول بغير علم والتجرؤ على الله تعالى بالقول الباطل، قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ

أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]، أو كان بمعنى الجهالة في الفعل، يقول الله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، أو كان بمعنى عدم معرفة الحقيقة أو الظن الخاطئ، فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣]. و وصف حالة ما قبل الإسلام بالجاهلية في غير ما آية، وسماه عهد الجاهلية وإن كان يجمع بين أنواع من الهنات و الفساد، تأكيدًا على أن الجهل إليه يرجع جميعُ الشرور الآفات، والعلم هو مصدر جميع أنواع الخير والفضل والكمال، فيقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة:٥٠]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣].

وأما الظلم فيضاد العدل، والمراد به الظلم الأخلاقي، والإفراط والتفريط، الأمر الذي يورث النفس الظلام. والأخلاق هي القوة التي تدفع إلى الأعمال، وتشكل حافزًا لها، والظلم والانحراف الخلقي لايخرج من رحمه إلا الأفعال الظالمة وغير العادلة. والانحرافات الأخلاقية تسقط بالأمة في الحضيض، وتذهب ريحها؛ فلايقوم لها وزن ولاقيمة عند الله تعالى وعند الناس، وبالتالي لاتعود الأمة حقيقا بأن تجد مكانتها في صفوف الأمم الكريمة العزيزة.

وورد تحريم الظلم في مواضع عدة من القرآن الكريم وبصورة واضحة وضوح الشمس في رائعة النهار، وحذر الله تعالى من السقوط في هوة الظلم ووهدة العدوان، وتوعد بسوء مغبة الظلم ووخامة عاقبته، فيقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٥].

وكيف فعل الله تعالى بهم، شرحته آيات كثيرة من القرآن الكريم، فيقول الله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٥٢]، وقال عز اسمه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الأنبياء:١١]، وحذر الله تعالى من الركون والخلود إلى الذين ظلموا، فقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا

لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

وأما العبودية فتولد من رحم الفوضى. والمراد بالفوضى أن تفقد الأمة النظام، ويتراخى حبل الترابط، والتناسق بين مختلف أفرادها وأعضائها. والنظام يشكل العمد والأوتاد التي لايقوم البيت إلا بها:

لايَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم
وَلا سَراةَ إِذا جُهّالُهُم سادوا
وَالبَيتُ لا يُبتَنى إِلّا لَهُ عَمَدٌ
وَلا عِمادَ إِذا لَم تُرسَ أَوتادُ
فَإِن تَجَمَّعَ أَوتادٌ وَأَعمِدَةٌ
لِمَعشَرٍ بَلغوا الأَمرَ الَّذي كادوا

وفي مثل هذه الحالة تستولي الأمم الأخرى عليها وتستعمرها وتفسدها وتجعل أعزة أهلها أذلة. وتتجلى ثمرة فوضويتها في العبودية والرق، وحينئذ تُحرم الأمة المغلوبة على أمرها ما كانت تمتاز به من الرصيد القومي والحضارة والثقافة والمدنية والعلم والعمل، وتنخر جراثيم الفوضى والانتشار والاضطراب كيانها، ثم لايبقى لها أثر ولا عين بعد مضي أيام معدودات.

ولخص القرآن الكريم الأمراض الفاتكة التي ابتليت بها بعض الأمم السابقة في هذه الثلاثة، فاعتبر الظلم والجهل أصلا، وفرع عليهما الرق والعبودية، قال الله تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١١٢].

ونبه القرآن الكريم على أن هذا الذل والخزي سببه العصيان، وهو سوء الأعمال، الذي نتج عن الاعتداء، والاعتداء هو تجاوز الحدود، وبتعبير آخر الظلم هو الاعتداء الأخلاقي الذي يخرج من رحمه جميع التصرفات الظالمة.

وأفرد القرآن الكريم هذه الأمراض بالذكر مما يوحي إلى أنها أصل وأساس الدمار الذي ينزل على الأمم ويودي بها، فجعل- في سياق حمل الإنسان الأمانة الإلهية - سببه الأساسي هاتين الخصلتين: الظلم والجهل، فاحتاج إلى هذه الأمانة لتعديل وإصلاحهما، وفاق بها الإنسان العالم كله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

أي يعوزه القوة العلمية والقوة العملية

والأخلاق الحسنة. ومن طبيعة هذه الأمانة - بما فيها من قوة العلم بالأشياء وعدل الأخلاق- أن تصيره أعدل وأعلم.

ورتب في بعض الآيات نعم الآخرة على اجتثاث هذا الظلم والجهل الطبيعي وتحقيق الاستعداد العلمي والعملي، فقال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

يقول الشيخ محمد شفيع رحمه الله في تفسير الآية: «خصت هذه الآية الكريم النجاة والفلاح في الآخرة بمن لايريدون تكبرًا في الأرض وفسادًا فيها، والمراد بالعلو الكبر، أي التعالي عن الناس، وغمط الناس واحتقارهم، والمراد بالفساد الظلم (سفيان الثوري)، وقال بعض المفسرين: كل معصية فساد في الأرض؛ فإن المعصية تمحق البركة في الدنيا، فدلت الآية الكريمة على أنه لاخلاق لمن تكبر وظلم أو أراد مطلق المعصية. ودلت الآية على التوعد بترتب الحرمان في الآخرة على مجرد إرادة العلو و الفساد، فعلم منه أن العزم على معصية والتصميم عليها من المعصية، كما في الروح؛ إلا أنه إن أمسك عن هذه الإرادة خوفًا من الله تعالى؛ فإنه يكتب له حسنة بدلا من السيئة، وإن عجز عن المعصية لسبب غير اختياري، ولم يقدر عليها، ولم يعمل بها، وإن بذل ما في وسعه في إتيانها، كان معصية وذنبا، ذكره الغزالي».

ومن الواضح أن العلو والكبر من نتاج الجهل: جهل البشر أصله النجس، والفساد ضد الصلاح، و يعبر عن حرمان الصلاح والرشد بظلم النفس علمًا كان أو خلقًا، فسلطت الآية الكريمة الضوء على هاتين الموبقتين بالإشارة إلى آثار الجهل والظلم.

ونبه القرآن الكريم في آية أخرى على أنه إذا كان هنا شيء يورث الإنسان الرق والضعة والخضوع، فهو الظلم والجهل، فلما تقرر استخلاف البشر، وأدرك الملائكة هذه الطبيعة الجاهلة الظالمة، أبدوا ما خطر ببالهم عن خلافته، وحكاه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة:٣٠].

«فأطلق هنا أيضا كلمة الفساد المضاد للصلاح، وفيه إشارة صريحة إلى الظلم، وسفك الدماء، و التنكر للحقيقة، والتصرف الجاهل، فلايقيم المرء لنفسه ولا لنفس غيره وزنًا، وفيه إشارة إلى الجهل، فأصل الحرمان من كل سعادة هما الظلم والجهل».

فهذه الموبقات الثلاث عملت عملها فيما

شهده العهد الجاهلي من الخراب والدمار الشامل: الجهل والظلم والعبودية، وبتعبير آخر: سوء الديانة وسوء السياسة، فلاعلاج لها اليوم إلا ما نفع علاج العرب لهذه الأدواء الثلاثة، وهو كما يقول الإمام مالك رحمه الله: «لايصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها».

فما هو هذا العلاج والدواء لهذه الأمراض الثلاثة: الجهل والرق والعبودية يا ترى؟هو ما يضادها من علم الأحكام واعتدال الأخلاق، واتباع الأسوة الحسنة، وهذه الخصال الثلاث اعتبرها الإسلام هدف بعثة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فيقول الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة:٢].

قال بعض أهل العلم في شرح هذا العلاج في ضوء هذه الآية الكريمة: «ذكرت الآية الكريمة تلاوة الآيات التي ترجع إلى الناحية اللفظية من القرآن الكريم، ثم عرج على ثلاثة مقامات لمعنويتها، يستخرج منها مبادئ ثلاثة لمشروع إصلاح الأمة، فأولها: التعليم، الذي يعني بيان جميع الأحكام وتلقينها، الأمر الذي يتوقف عليه استكمال علم الأمة وفكرها ورقيها.

والأمر الثاني: التزكية أو تهذيب الأخلاق، ويعني ذلك إصلاح القلب من جميع نواحيه، حيث يتم إبراز جميع الكيفيات والمقامات الباطنية التي تتوقف عليها استقامة القلب، ثم إصلاحها. والثالث: تلقين الحكمة، ومعناه - على بعض التفاسير- إبراز الأسوة الحسنة لمجموع حياة الشارع - الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- للأمة، ويتوقف على هذا المجموع تنظيم حياة الأمة؛ فتخلص البرنامج القرآني الإصلاحي للأمة في ثلاثة مبادئ: ١- تعليم الأحكام. ٢- تهذيب الأخلاق. ٣- تنظيم الأعمال».

فهذا البرنامج القرآني الإصلاحي يشمل جميع النقائص والهنات الإنسانية التي ورثتها؛ بل يستأصل هذه النقائص وتلك الهنات، وهو الذي يقوم عليه دعائم مجتمع لايظلم فيه أحد، ولايبخس فيه أحد حقه، ويعيش فيه البشر حياةً سعيدةً أساسها الحب والوئام، والتسامح، ويستوي فيه أفراد النوع البشري في العدل والإحسان، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لملك على سوقة إلا بالتقوى.

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

* * *

من نفحات القرآن الكريم

سورة الفاتحة

(الحلقة/٢)

بقلم : **العلامة الشيخ أشرف علي التهانوي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ
المعروف بـ«حكيم الأمة» المتوفى ١٣٦٢هـ/١٩٤٣م
تعريب : رئيس التحرير

يجد القارئ الكريم في هذا العمود النسخة العربية لتفسير «بيان القرآن» لصاحبه العلامة أشرف علي التهانوي رحمه الله، نقله إلى العربية كاتب هذه السطور، وعلق عليه وراجعه لجنة علمية مكونة من أساتذة الجامعات والمشايخ في المدينة المنورة زادها الله شرفًا وكرامة.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾: في الكشاف[١]: «فإن قلت: فلِمَ قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه، والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى، كقولهم: فلان عالم نِحرير، وشجاع باسل، وجواد فياض؟ قلت: لما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، أردفه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾، كالتتمة والرديف ليتناول[٢] ما دقّ منها وما خفّ».

﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: تقديم المفعول لقصد الاختصاص، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾ [الزمر:٦٤]، ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا﴾ [الأنعام:١٦٤]، والمعنى: نخصك بالعبادة، ونخصك بطلب المعونة[٣].

فإن قلت: لم عَدَلَ عن لفظ الغَيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمّى الالتفات في علم البيان[٤]، وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطريةً لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه، من إجرائه على أسلوب واحد.

وقد تختص مواقعه بفوائد، ومما اختص به هذا الموضع: أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن، فخوطب ذلك المعلوم بتلك الصفات (الكشاف)[٥].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾: إيجاز حذف[٦] أيضا[٧]، لقصد العموم، أي: على العبادة، وعلى أمورنا كلها (الإتقان)[٨].

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾: فيه استعارة تحقيقية (الإتقان)[٩].

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ﴾: بدل من ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، وهو في حكم تكرير العامل كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ [الأعراف:٧٥].

فإن قلت: ما فائدة البدل؟ وهلّا قيل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم؟ قلت: فائدته[١٠] التوكيد والإشعار بأن «الصراط المستقيم» تفسيره: صراط المسلمين، ليكون ذلك شهادة للصراط المستقيم بالاستقامة على أبلغ وجه وآكده.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾: فإن قلت: لم دخلت «لا» في ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾؟ قلت: لما في «غَير» من معنى النفي، كأنه قيل: لا المغضوب عليهم ولا الضالين.

وتقول: أنا زيدًا غيرُ ضاربٍ، مع امتناع قولك: أنا زيدًا مثلُ ضاربٍ؛ لأنه[١١] بمنزلة قولك: أنا زيدا لا ضارب[١٢].

ففيه تأييد لكون لفظة «غير» بمعنى «لا»، وجه التأييد: أنه لو لم يكن بمعنى «لا» لم يجز تقديم معمول ما أضيف إليه عليه مع أنه ليس كذلك.

مسائل السلوك:

قسم الاستنباط:

إن مقام السالكين ينتهي عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، وبعده يطلب التمكين[١٣].

وذلك أن الحمد مبادئ حركة المريد[١٤]، فإن نفس السالك إذا تزكت، ومرآة قلبه إذا انجلت، فلاحت فيها أنوار العناية الموجبة للولاية، تجردت النفس الزكية للطلب (أي طلب المقصود)، فرأت آثار نعم الله تعالى عليها سابغةً، وألطافه غير متناهية، فحمدت على ذلك، وأخذت في الذكر، فكشف لها الحجاب من وراء أستار العزة عن معنى ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، فشاهدت ما سوى الله سبحانه على شرف الفناء مفتقرًا إلى المُبقي محتاجًا إلى التربية.

فترقت لطلب الخلاص من وحشة الإدبار، وظُلمة السكون إلى الأغيار، فهبَّت لها من نفحات جناب القدس نسائم ألطاف الرحمن الرحيم، فعرجت للمعات بوارق الجلال، من وراء سِجاف الجمال، إلى الملك الحقيقي، فنادت بلسان الاضطرار في مقام ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ (أي مقام التوحيد): أسلمت نفسي إليك، وأقبلت بكليّتي عليك.

وهناك خاضت لجّة الوصول، وانتهت إلى مقام العين، فحققت نسبة العبودية، فقال: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، وهنا انتهاء مقام السالك (كما سبق بيانه في

بداية هذا الكلام).

ألا ترى[١٥] إلى سيد الخلق وحبيب الحق كيف عُبِّر عن مقامه هذا بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء:١]، فطلب التمكين بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ (كما سبق بيانه أيضًا في بداية هذا الكلام). و ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ (أي صار طالبا للتمكين)، واستعاذ عن التلوين بقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فصعد مستكمِلًا، ورجع (ونزل) مكمَّلًا، وكأنه لهذا (أي لهذه اللطيفة) سُميت الصلاة معراج المؤمن[١٦].

قسم الاعتبار:

ومن باب الإشارة (في نكتة الخطاب في ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بعد الغَيبة في ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾) أن يوم الدين تلويح إلى مقام الفناء؛ لأنه موت النفس عن شهواتها، وخروجها عن جسد تعلقها بالأغيار، و «مَنْ مَاتَ، فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ»[١٧]، فعند ذلك يحصل البقاء في جنة الشهود، ويتحقق الجمع في مقام صدق عند المليك المعبود، (فناسب الخطاب)[١٨].

وقوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾: في هذا البدل إشارةٌ إلى أن الصراط المستقيم لا يتأتّى بدون متابعة أهل الصراط المستقيم، ولا يكفي فيه الزُّبُر والأوراق.

وأيضًا فيه إشارة إلى أن المطلوب هو الصراط المستقيم التشريعي المختصّ بالمنعَم عليهم، لا التكويني العام لكل مخلوق، غير المختص بالمنعم عليهم.

* * *

الهوامش:

(١) الكشاف (٨/١).

(٢) كذا في الكشاف وطبعة البشرى، وفي الأصل: يتناول.

(٣) «(إياك) مفعول (نعبد)، وقُدِّم للتعظيم والاهتمام به، والدلالة على الحصر، ولذلك قال ابن عباس: نعبُدك ولا نعبد معك غيرَك، ولتقديم ما هو مقدَّمٌ في الوجود وهو الملك المعبود، وللتنبيه على أن العابدَ ينبغي أن يكون نظرُه إلى المعبود أولًا وبالذات، ومنه إلى العبادة، لا من حيث إنها عبادةٌ صدَرتْ عنه، بل من حيث إنها نِسْبَةٌ شريفة إليه، وَوُصْلَةٌ بينه وبين الحق، فإن العارف إنما يحقّ وصوله إذا استغرق في ملاحظة جناب القدس، وغاب عما عداه، حتى إنه لا يلاحظ نفسَه ولا حالًا من أحوالها إلا من حيث إنها تَجَلٍّ من تجلياته ومظهرٌ لربوبيته، ولذلك فُضِّلَ ما حكى اللَّهُ عن حبيبه حين قال: لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا، على ما حكاه عن كليمه حيث قال: إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ أي: حيث صرّح بمطلوبه، و(إياك) مفعول (نستعين) وقدّم أيضًا للاختصاص والاهتمام، كما تقدم في إِيَّاكَ نَعْبُدُ. وكرّر الضمير ولم يقل: إياك نعبد ونستعين لأن إظهارَه أبلغ في إظهار الاعتماد على الله، وأقطعُ في إحضار التعلق بالله والإقبال على الله وأمدحُ، ألا ترى أن قولك: بك أنتصر وبك أحتمي وبك أنال مطالبي- أبلغ وأمدح من قولك: بك أنتصر وأحتمي ... الخ؟. وَقَدَّمَ العبادة على الاستعانة ليتوافق رؤوس الآي، وليُعلمَ منه

أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أَدْعَى إلى الإجابة؛ فإن مَنْ تَلبَّس بخدمة الملك وشرع فيها بحسب وُسْعِه، ثم طلب منه الإعانة عليها، أجيب إلى مطلبه، بخلاف من كلّفه الملكُ بخدمته، فقال: أعطني ما يعينُني عليها، فهو سوء أدب، وأيضًا: من استحضر الأوصافَ العِظام ما أمكنه إلا المسارعةُ إلى الخضوع والعبادة، وأيضًا: لمّا نسبَ المتكلمُ العبادةَ إلى نفسه أوْهَمَ ذلك تبجحًا واعتدادًا منه بما يصدُر عنه فعقَّبه بقوله: وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، دفعًا لذلك التوهم.

والعبادة: أقصى غاية الخضوع والتذلل، ومنه طريق مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلل، والاستعانة: طلب المعونة، والمراد طلب المعونة في المُهمات كُلِّها، أو في أداء العبادات.

والضمير المستتِر في الفعلين للقارىء ومن معه من الحفظة وحاضري صلاة الجماعة، أو له ولسائر الموجودين.

أدْرَجَ عبادته في تضاعيف عبادتهم وخلط حاجته بحاجتهم لعلها تُقبل ببركتها ويُجاب إليها، ولهذا شرعت الجماعة، قاله البيضاوي». البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (١/٥٩)؛ أنوار التنزيل وأسرار التأويل (١/٢٩).

(٤) «الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة». الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص٩٨)

(٥) الكشاف (١/١٣-١٤)، وقد انتقد ابن الأثير بعض كلام الزمخشري في فائدة الالتفات، ومما قاله: «والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، أو من الغيبة إلى الخطاب، لا يكون إلا لفائدة اقتضته، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب، غير أنها لا تُحد بحدّ، ولا تُضبط بضابط، لكن يشار إلى مواضع منها، ليقاس عليهاغيرها، فإنا قد رأينا الانتقال من الغيبة إلى الخطاب قد استعمل لتعظيم شأن المخاطب، ثم رأينا ذلك بعينه، وهو ضد الأول قد استعمل في الانتقال من الخطاب إلى الغيبة، فعلمنا حينئذ أن الغرض الموجب لاستعمال هذا النوع من الكلام لا يجري على وتيرة واحدة، وإنما هو مقصور على العناية بالمعنى المقصود، وذلك المعنى يتشعب شعبا كثيرة لا تنحصر، وإنما يؤتى بها على حسب الموضع الذي ترِد فيه، وسأوضح ذلك في ضرب من الأمثلة الآتي ذكرها:

فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب، فكقوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب، وبما يختص به هذا الكلام من الفوائد قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فإنه إنما عدل فيه من الغيبة إلى الخطاب؛ لأن الحمد دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك، ولا تعبده؟، فلما كانت الحال كذلك استعمل لفظ الحمد لتوسطه مع الغيبة في الخبر، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ولم يقل: «الحمد لك»، ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى الطاعات قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فخاطب بالعبادة إصراحًا بها، وتقربًا منه عز اسمه بالانتهاء إلى محدود منها.

وعلى نحو من ذلك جاء آخر السورة، فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فأصرح الخطاب لما ذكر النعمة، ثم قال: «غير المغضوب عليهم» عطفًا على الأول؛ لأن الأول موضع التقرب من الله بذكر نعمه، فلما صار إلى ذكر الغضب جاء باللفظ منحرفًا عن ذكر الغاضب، فأسند النعمة إليه لفظًا وزوى عنه لفظ الغضب تحننًا ولطفًا.

فانظر إلى هذا الموضع، وتناسب هذه المعاني الشريفة التي الأقدام لا تكاد تطؤها، والأفهام مع قربها صافحة عنها.

وهذه السورة قد انتقل في أولها من الغيبة إلى الخطاب، لتعظيم شأن المخاطب، ثم انتقل في آخرها من الخطاب إلى الغيبة، لتلك العلة بعينها، وهي تعظيم شأن المخاطب أيضا؛ لأن مخاطبة الرب تبارك وتعالى بإسناد النعمة إليه تعظيم لخطابه، وكذلك ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه تعظيم لخطابه.

فينبغي أن يكون صاحب هذا الفن من الفصاحة، والبلاغة عالما بوضع أنواعه في مواضعها على اشتباهها». المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت: الحُوفي، طبعة: دار نهضة مصر القاهرة (٢/١٦٩-١٧١)، وذكر نحوه في كتابه الآخر: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور (ص٩٩).

(٦) ينقسم الإيجاز إلى قسمين: إيجاز حذف، وهو أن يحذف شيء من الكلام وتدلّ عليه القرينة. وإيجاز قصر، وهو تكثير المعنى وتقليل الألفاظ. ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب (٧/٤)؛ عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (١/٥٩٥).

(٧) لعله يشير إلى حذف متعلَّق «بسم الله» كما سبق.

(٨) الإتقان في علوم القرآن (٣/١٨١).

(٩) الإتقان في علوم القرآن (٣/١٥٤)، والاستعارة: «اللفظ المستعمل فيما شُبه بمعناه الأصلي، كأسد في قولنا: رأيت أسدًا يرمي، فأسد استعارة؛ لأنه لفظ استعمل في شجاع شبه بالأسد الذي هو الحيوان المفترس، فإن تحقق مَعْنَاهَا المستعملة فِيهِ حسًا أَو عقلا بِأَن كَانَ أمرا مَعْلُوما يُمكن أَن ينص عَلَيْهِ ويشار إِلَيْهِ إِشَارَة حسية أَو عقلية فتحقيقية أَي تسمى بذلك كَقَوْلِه تَعَالَى: (اهدنا الصِّرَاط الْمُسْتَقيم) أَي الدّين الْحق، وهو ملة الإسلام، وَهُوَ أَمر مُتَحَقق عقلا لَا حسا» إتمام الدراية لقراء النقاية (ص١٣٤)؛ أنوار الربيع في أنواع البديع (ص٤٥)؛ وينظر عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح (٢/١٤٤)؛ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع (ص٢٦٠-٢٦٣).

(١٠) كما في الكشاف (١/١٥) وطبعة البشرى، وكان في الأصل: فائدة.

(١١) أي قولك: أنا زيدًا غيرُ ضاربٍ.

(١٢) الكشاف (١/١٧)، «قال الكوفيون: «لا» بمعنى غير، وتقديره، غير المغضوب عليهم وغير الضالين.

وقال البصريون: «لا» زائدة، زيدت لتضمن «غير» معنى النفي..

وفي الفائدة في زيادة «لا» ثلاثة أقوال:

أحدها، ليعلم قطعا أنه معطوف على المغضوب عليهم، لا على الذين أنعمت عليهم؛ لأن اللفظ يحمل ذلك، وإن كان المعنى يأباه، ألاترى أنك إذا قلت مررت بالقوم غير زيد والأمير، جاز أن يكون الأمير مجرورا بالعطف على زيد، وجاز أن يكون معطوفا على القوم.

والثاني: لزوال توهم أنه وصف للمغضوب عليهم؛ لأن العرب قد تعطف النعت بالواو تقول: مررت بزيد الفقيه والأديب، قال الشاعر:

إلى الملِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَامِ ... وليثَ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ

[القرم: السيد العظيم، وقوله: «ليث»، منصوب على المدح. ينظر معاني القرآن للفراء (١: ١٠٥)؛ جامع البيان (٣/٨٩)].

والثالث: أفاد إفادة نفيهما مجموعين ومتفرقين». غرائب التفسير وعجائب التأويل (١/١٠٤)؛ وينظر: شرح كتاب سيبويه (١/٤٧٠)؛ شرح ديوان الحماسة (ص٢٠٣)؛ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (١/٧٦٦)؛ ارتشاف الضرب من لسان العرب (٤/١٨١١).

«ولتقارب معنى (غير) و (لا) أتى الزمخشري بمسألة يتبيّن بها ذلك ليقوي بها التناسب بينهما فقال: وتقول: أنا زيدا غير ضارب؛ لأنّه بمنزلة: أنا زيدا لا ضارب. وامتنع: أنا زيدا مثل ضارب، يريد أنّ العامل إذا كان مضافا إليه لم يتقدّم معموله عليه ولا على المضاف. وإنّما أجازوا تقديم معمول ما أضيف إليه (غير) على المضاف حملا لها على (لا).

واعتُرض بأنّ ما ذهب إليه في (غير) مذهب ضعيف جدّا، وأنّه بناه على جواز التقديم في (لا)، وفي تقديم معمول ما بعد (لا) عليها ثلاثة مذاهب ذُكرت في النحو، وكون اللفظ يقارب اللفظ في المعنى لا يقضي له بأن يجرى أحكامه عليه. ينظر البحر المحيط في التفسير (١/٥٢)؛ المجيد في إعراب القرآن المجيد (ص٦١).

والأقوال المشار إليها هي: أنه يجوز ذلك في «لا»، وهو الصحيح، والقول الثاني: يمنعُ ذلك مطلقًا، والقول الثالث: مفصِّلٌ بين أن تكونَ جوابَ قَسَمٍ فيمتنعَ فيها ذلك، وبين أن لا تكونَ فيجوزَ. ينظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (١/٧٢).

«قال الزجاج: وإنما جاز أنْ يقع (لا) في قوله تعالى: (ولا الضالين)؛ لأن معنى (غَيْر) متضَمن معنى النفي، يجيز النحويون: أنت زيدًا غير ضَارب؛ لأنه بمنزلة قولك أنت زيدًا لَا تضْرِبُ، ولا يجيزون أنتَ زيدًا مثل ضارب؛ لأن زيدًا من صلة ضارب فلا يَتقَدم عليه». معاني القرآن وإعرابه للزجاج (١/٥٤).

والخلاصة أنّ المضاف إلى الشيء يتكمل بما أضيف إليه كما يكمل الموصول بصلته، والصلة لا تعمل في الموصول، ولا فيما قبله؛ فلا يجوز في نحو «أنا مثل ضارب زيدًا» أن يتقدم «زيدًا»

على «مثل»، وإن كان المضاف «غيرًا» وقصد بها النفي، جاز أن يتقدم عليها معمول ما أضيفت إليه، كما يتقدم معمول المنفي بـ«لا»، فأجازوا: «أنا زيدًا غيرُ ضاربٍ»، كما يقال: أنا زيدًا لا أضرب. ينظر شرح الأشموني لألفية ابن مالك (٢/١٩٠).

(١٣) «التلوين صفة أرباب الأحوال، والتمكين: صفة أهل الحقائق، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين؛ لأنه يترقى من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف،... فإذا وصل تمكّن». الرسالة القشيرية (١/٢٧٥).

وقال المصنِّف ما تعريبه: «التلوين: اختلاف حالات قلب السالك من قبضٍ تارةً وبسط تارة أخرى، وسُكر أحيانا وصحو أحيانا أخرى، وهذه التغيرات تعرض للمبتدئ كثيرا.

وهي أمر طبيعي يحصل للسالك يمر به ولا ضرر فيه، إلا إذا توقف عنده وتشوّش خاطره بسببه، فعليه ألا ينشغل به؛ بل يستقيم على طاعاته وأذكاره حتى يبلغ الحال المحمودة المناسبة لاستعداده، وهو المعبّر عنه بالتمكين، وبعد الوصول إليه يسهل أداء الحقوق كلها باعتدال وتوسط كما أن هذه الأمة جعلها الله وسطا، وبسبب هدوء صاحب هذا المقام وسكينته يتراءى للناظر أن هذا الشخص من العوام مع كونه واصلا بخلاف المبتدئ الذي يلفت الأنظار حماسه مع أنه مبتدئ صاحب حال». الشريعة والطريقة /٤١٤-٤١٥.

(١٤) وقال بعضهم من باب الإشارة: كسرت الباء في البسملة؛ تعليما للتوصل إلى الله تعالى والتعلق بأسمائه بكسر الجناب والخضوع وذل العبودية؛ فلا يُتوصل إلى نوع من أنواع المعرفة إلا بنوع من أنواع الذل والكسر. روح المعاني (١/٥٣).

(١٥) كذا في بيان القرآن ومسائل السلوك وفتوح الغيب؛ وفي الروح: يُرى.

(١٦) روح المعاني ١/٩٢، وفي آخره «معراج المؤمنين»، والمثبت من بيان القرآن ومسائل السلوك هو المشهور، كما في مفاتيح الغيب (١/٢٢٦)؛ فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (١٦/٦٦٣)؛ تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس (١/٣١٢)؛ مرقاة المفاتيح (١/٥٥).

(١٧) هذا مرويّ عن جماعة من السلف مثل زياد بن عبد الله النُّميري كما في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء – ط: السعادة (٦/٢٦٨) والفُضيل بن عِيَاض كما في تذكرة الموضوعات للفتني(ص٢١٥)، وبنحوه عن المغيرة بن شعبة وعلقمة في جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/٤٦٩ ط: التركي)، ولا يصح مرفوعا، انظر حاشية زهر الفردوس (١/٨٣٨)، وذكره السبكي في فصل جمع فِيهِ جميع مَا فِي كتاب الْإِحْيَاء من الأحاديث التي لم يجد لها إسنادا، طبقات الشافعية الكبرى (٦/٢٨٧).

وقال العراقي في تخريج الإحياء ص ١٤٠٣: أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

وذكر أبو شجاع الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (١/٢٨٥) من حديث أنس مرفوعا إِذا مَاتَ أحدكُم فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ، وفي سنده عنبسة بن عبد الرحمن متروك، رماه أبو حاتم بالوضع. انظر حاشية زهر الفردوس (١/٨٣٨).

وذكر الزيلعي في تخريج أحاديث الكشاف (١/٤٣٦) أنّ معناه في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كانت الأعراب إذا قدموا على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سألوه عن الساعة، فينظر إلى أحدث إنسان منهم فيقول: «إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ، قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ». صحيح البخاري (٦٥١١)؛ وصحيح مسلم (٢٩٥٢).

(١٨) روح المعاني (١/٩٢)، وما بين القوسين من الشيخ المصنِّف، وكان فيه: من مقام صدق...

وأصل هذه الإشارة سبق إليه البيضاوي حيث قال: «ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائرالذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان، والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عيانًا، والمعقول مشاهدًا، والغيبة حضورًا، بنى أول الكلام على ما هو مبادئ حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه

والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفى بها هو منتهى أمره، وهو أن يخوض لجة الوصول، ويصير من أهل المشاهدة؛ فيراه عيانًا ويناجيه شفاهًا. اللّهم اجعلنا من الواصلين للعين دون السامعين للأثر». أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٢٨/١).

وقال الطيبي: «ويمكن أن يعبَّر بلسان أهل العرفان ويقال: إن الحمد مبادئ حركة المريد؛ فإن نفس السالك إذا تزكت، ومرآة قلبه إذا انجلت، فلاحت فيها أنوار العناية- والعناية هي التي أوجبت الولاية- تجردت النفس الزكية للطلب، فرأت آثار نعم الله عليها سابغة، وألطافه غير متناهية، فحمدت على ذلك وأخذت في الذكر، فكشف لها الحجاب مما وراء أستار العزة عن معنى رب العالمين، فشاهدت ما سوى الله على شرف الفناء، مفتقرة إلى المبقي محتاجة إلى التربية؛ فترقت لطلب الخلاص من وحشة الإدبار وظلمة السكون إلى الأغيار.

فهبت لها من نفحات جناب القدس نُسيمات ألطاف الرحمن الرحيم، فعرجت من هذا المقام بلمعات بوارق الجلال من وراء سجاف الجمال إلى الأحد الصمد، المالك الحقيقي، فنادت بلسان الاضطرار في مقام ﴿لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]: أسلمت نفسي إليك، وألجأت ظهري إليك. وهناك خاضت لجة الوصول، وانتهت إلى مقام العين؛ فحققت نسبة العبودية فقالت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وهنا انتهاء مقام السالك. ألا ترى إلى سيد الخلق كيف عبر عن مقامه هذا بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]؟.

فطلبت التمكين بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، واستعاذت عن التلوين بقوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، فقصد مستكملًا ورجع مكملا، وفي كلام صاحب «المفتاح» إيماء إلى هذا المعنى». فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (٧٤٩/١).

والمشار إليه في آخر كلامه هو في مفتاح العلوم (ص٢٠٢) حيث قال السكاكي، وهو يفيض في البيان عن الالتفات:

«وإذا وعيت ما قصصته عليك، وتأملت الالتفات في «إياك نعبد وإياك نستعين» بعد تلاوتك لما قبله من قوله: «الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين»، على الوجه الذي يجب، وهو التأمل القلبي، علمت ما موقعه، وكيف أصاب المحز وطبق مفصل البلاغة لكونه منبها على أن العبد المنعم عليه بتلك النعم العظام الفائتة للحصر، إذا قدر أنه ماثل بين يدي مولاه من حقه، إذا أخذ في القراءة أن تكون قراءته على وجه يجد معها من نفسه شبه محرك على الإقبال على من يحمد صائر في أثناء القراءة على حالة شبيهة بإيجاب ذلك عند ختم الصفات مستدعية انطباقها على المنزل على ما هو عليه، وإلا لم تكن قارئا.

والوجه هو إذا افتتح التحميد أن يكون افتتاحه عن قلب حاضر ونفس ذاكرة يعقل فيم هو ؟، وعند من هو ؟.

فإذا انتقل من التحميد على الصفات أن يكون انتقاله محذوا به حذو الافتتاح؛ فإنه متى افتتح على الوجه الذي عرفت مجريا على لسانه الحمد لله، أفلا يجد محركا للإقبال على من يحمد من معبود عظيم الشأن حقيق بالثناء والشكر مستحق للعبادة ؟.

ثم إذا انتقل على نحو الافتتاح على قوله: رب العالمين، واصفاله بكونه ربا مالكا للخلق لا يخرج شيء من ملكوته وربوبيته، أفَترى ذلك المحرك لا يقوى؟، ثم إذا قال: الرحمن الرحيم، فوصفه بما ينبئ عن كونه منعما على الخلق بأنواع النعم جلائلها ودقائقها مصيبا إياهم بكل معروف، أفلا تتضاعف قوة ذلك المحرك عند هذا؟.

ثم إذا آل الأمر على خاتمة هذه الصفات، وهي «مالك يوم الدين» المنادية على كونه مالكا للأمر كله في العاقبة يوم الحشر للثواب والعقاب، فما ظنك بذلك المحرك أيسع ذهنك أن لا يصير على حد يوجب عليك الإقبال على مولى شأن نفسك معه منذ افتتحت التحميد ما تصورت؟، فتستطيع أن لا تقول: إياك يا من هذه صفاته نعبد ونستعين لا غيرك.... اللّهم زدنا اطلاعًا على لطائف قرآنك الكريم، وغوصا على لآلئ فرقانك العظيم، ووفقنا لابتغاء مرضاتك».

* * *

نظرات في الحديث

بقلم: الدكتور محمد عبد الرؤوف

عن قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف قال:

«ولدت أنا ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عام الفيل، فنحن لِدان، ولدنا مولدًا واحدًا».

وعن عبد الله بن عباس قال:

«ولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الاثنين، واستنبئ يوم الاثنين، وتوفي يوم الاثنين، وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين».

كلّ من يحب المصطفى ﷺ ويحرص على اتباع سنته، يسعى قدر الإمكان ليتعرّف على شخص الرسول الكريم وفضائله وأقواله وشمائله، ويزيد ذلك ترغيبا ما يمتاز به الحديث الشريف من جمال العبارة وروعة الأسلوب وغزارة المعاني.

نستهل صدر هذا المقال بحديثين: الأول من كلام قيس بن مخرمة، وقد رواه الإمام الجليل أحمد في مسنده، وفيه يحدث قيس أن ميلاده وميلاد الرسول ﷺ كانا في عام الفيل، وهو عام ٥٧٠ أو عام ٥٧١ من التقويم الميلادي على ما يقولون، وقوله: «لِدان» مثنى «لدة»، وهو المساوي في زمن الولادة. ويذكر عبد الله بن عباس في الحديث الثاني، وهو من رواية الإمام ابن حنبل أيضًا، أن ميلاد الرسول صلوات الله عليه وعلى آله كان يوم الاثنين، ثم زاد فأفاد بأن أياما أخرى من أيام الاثنين شهدت أحداثا جليلة من حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكما كان يوم ولادته كان يوم وفاته، كما كان يوم أن أفلح بحكمته وفض نزاعا كان ينذر بالشر، في مكة قبل البعثة حول وضع الحجر الأسود في مكانه، وبدأ نزول الوحي عليه في يوم الاثنين، وبدأ رحلة الهجرة التأريخية من مكة يوم الاثنين، ووصل يثرب التي سماها مدينة رسول الله يوم الاثنين.

قد يقال: كيف نعتبر هذين النقلين من الحديث النبوي مع أنهما ليسا من كلام الرسول نفسه؛ بل من كلام بعض أصحابه؟ والواقع أن لفظ الحديث كاصطلاح خاص بين العلماء يطلق على كل ما يذكر فيه شيء عن الرسول عليه الصلاة والسلام حتى ما يذكر فيه أوصافه البدنية، ومن ذلك حكاية أم معبد التي قصَّت على زوجها أبي معبد في مساء يوم مبارك

بعد أن عاد مع غنمه، وذكرت له كيف بورك في شأتها التي خلَّفها الجهد عن الغنم ببركة زائر عرّج على خيمتها مع صاحبيه، فأدرك أبو معبد أنه صاحب قريش وطلب منها أن تصفه له، وقد أورد محمد بن سعد القصَّة في كتابه: «الطبقات الكبرى»، ونقتبس من وصفها للرسول ما يلي:

«رأيت رجلا ظاهر الوضاءة، منبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، ولم تزر به صملة، وسيم قسيم، في عينيه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، أجود أكحل أزجّ أقرن، شديد سواد الشعر، في عنقه سطع وفي لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكان منطقه خرزات نظم يتحدّرن، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، أجهر الناس وأجمله من بعيد وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه من طول ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين فهو أنضر الثلاثة منظرا وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، مجفود محشود، لا عابث ولا مفند».

وإلى جانب هذه المجموعة من الأقوال المأثورة التي تصف شخص الرسول الكريم أو تتحدث عن مراحل حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هناك مجموعة أخرى تحدثنا عن أفعاله صلوات الله تعالى عليه أو تصف فضائله ومواقفه، ومنها نتخذ العبرة ونستمدّ القدوة ويستخلص التشريع للأمة، ولنسق من هذا النوع الحديثي الأمثلة الآتية:

روى مسلم بن الحجاج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صحيحه عن أنس بن مالك قال:

«لما قدم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة أخذ أبو طلحة بيدي فانطلق بي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أنسًا غلام كيس فليخدمك قال: فخدمته في السفر والحضر، والله ما قال لي لشيء صنعته: لم صنعت هذا هكذا، ولا لشيء لم أصنعه: لِمَ لمْ تصنع هذا هكذا؟».

وروي أيضًا أن أبا سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشد حياءً من العذراء في خدرها، وكان إذا كره شيئًا عرفناه في وجهه».

وروى مسلم كذلك عن موسى بن أنس عن أبيه قال:

«ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، فجاء رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا فإن محمدا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة».

وروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«ما خير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما، فإن كان إثما كان

أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجلّ».

وروى البخاري ومسلم وأحمد – واللفظ له – عن البراء بن عازب قال:

«إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو أخواله من الأنصار، وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر أوسبعة عشر شهرًا، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلّى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلّى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه فمرّ على أهل مسجد وهم راكعون، فقال:

«أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة، قال: فداروا كما هم قبل البيت، وكان يعجبه أن يحول قبل البيت، وكان اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك».

وروى أحمد عن أبي عباس الزرقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

«كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعسفان فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد، وهم بيننا وبين القبلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر فقالوا: قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم، قالوا: تأتي عليهم صلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم، ثم قال: فنزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات بين الظهر والعصر: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قال: فحضرت، فأمرهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخذوا السلاح، قال: فصففنا خلفه صفين، قال: ثم ركع فركعنا جميعًا، ثم رفع فرفعنا جميعًا، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم، ثم تقدّم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، وجاء هؤلاء إلى مصاف هؤلاء، قال: ثم ركع فركعوا جميعًا، ثم رفع فرفعوا جميعًا، ثم سجد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم، فلما جلس جلس الآخرون، فسجدوا فسلم عليهم ثم انصرف، قال: فصلاها رسول الله ﷺ مرتين، مرة بعسفان ومرة بارض بني سليم».

ولا يحتوي واحد من هذه الأحاديث على كلمة واحدة من ألفاظ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنها تصف بعض فضائله وأعماله، فأحدها يصف حلمه، وآخر يصف حياءه، وثالث يتحدث عن كرمه المنقطع النظير، وتحدثنا أم المؤمنين عن سنته ﷺ في الأخذ بالأيسر ما اجتنبت المحارم وعن صبره على الأذى إلا إذا انتهكت حرمات الله، ويذكر الحديث التالي تحويل القبلة إلى البيت الحرام وبعض ما حدث عندئذ، ويفيدنا الحديث الأخير كيف نظم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفوف المسلمين لصلاة الخوف وكيف أمَّهم فيها، ويستنبط من هذا النوع من

الأحاديث الكثير من مكارم الأخلاق وتفاصيل الشريعة الغراء.

والنوع الثالث من الأحاديث النبوية ما يذكر من أفعال أو عادات جرت على عهده ولكن سكت عنها ولم يعترض عليها، فدلّ سكوته على مشروعيتها وحلها، ويسمى هذا «تقريرا» ومن ذلك ما يلي:

روى النسائي عن جابر أنه قال:

«كنا نأكل لحوم الخيل على عهد رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ».

وروى النسائي أيضا في سننه عن أم المؤمنين عائشة قالت:

«إن كان ليكون عليّ الصيام من رمضان فما أقضيه حتى يجيء شعبان».

فأكل لحم الخيل على عهده صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مع عدم اعتراضه عليه يدلّ على حله، كما أن تأجيل السيدة أم المؤمنين قضاء ما فاتها من صيام أيام الحيض من شهر رمضان إلى حلول شهر شعبان – مع علم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بذلك – يدل على جوازه حيث سكت ولم يعترض عليه. فاته ﷺ ما رأى منكرا وسكت عنه، فمن ذلك ما يلي:

روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر قال:

«رأى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه وطرحه وقال: يعمد أحدكم إلى جمرة من النار فيضعها في يده».

وروى مسلم أن عائشة قالت: إنها كانت أخذت نمطا فسترته على الباب، فلما قدم النبي ﷺ فرأى النمط، عرفت الكراهية في وجهه، فجذبه حتى هتكه أو قطعه وقال: «إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين» قالت: «فقطعنا منه وسادتين وحشوتهما ليفا فلم يعب على ذلك».

وكان النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذا عرضت أمامه آراء متعارضة أقرّ منها ما هو مشروع فأثبته، وبذلك ينكر ما عداه، ومن ذلك ما رواه إمام المحدثين محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه عن ابن عمر أنه كان يقول:

«كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس ينادى لها، فتكلموا يومًا في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسًا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقًا مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولا تبعثون رجلا ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله ﷺ: يا بلال، قم فناد بالصلاة».

فأمر النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بلالا بالنداء للصلاة دل على تسويغ الأذان ومشروعيته، كما دل في نفس الوقت على إنكار ما اقترح من دق الناقوس أو استعمال البوق للدلالة على حضور وقت الصلاة.

وأبلغ أنواع الحديث وأعلاها ما أثر من كلام

النبي نفسه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد أوتي جوامع الكلم، وكانت عباراته في أعلى درجات النقاوة بعد كتاب الله تعالى، ونسوق من ذلك ما يلي:

روى ابن ماجه أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

وروى ابن ماجه أيضا في سننه عن حذيفة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: وكيف يذل نفسه؟ قال: يتعرّض للبلاء لما لا يطيقه».

وروى البخاري ومسلم وأبوداود – واللفظ للبخاري – عن عبد الله بن عمر قال: إن رجلا سأل النبي ﷺ: أي الإسلام أفضل؟ قال –ﷺ–:

«تطعم الطعام وتفشي السلام على من تعرف ومن لم تعرف».

وأخرج مسلم عن صهيب بن سنان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له».

وروى الترمذي وأبوداود – واللفظ للأول – عن جابر رضي الله عنه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

«بين الكفر والإيمان ترك الصلاة».

وروى أبوداود عن جابر وابن طلحة قالا: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«ما من امرئ يخذل امرءًا في موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر مسلما في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته».

ومن هذا القسم العالي من الحديث ما أكده الرسول صلوات الله تعالى عليه بنسبته إلى الله سبحانه، ويسمى بالحديث القدسي، وهو كالحديث النبوي. لفظه هو لفظ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومكانته هي مكانة سائر الأحاديث النبوية، فلا يتعبد بتلاوته ولا يحرم مسُّه أو حملُه للمحدث ولم يتحدّ بلفظه كما تحدى بالقرآن الكريم. ولنقتبس من الأحاديث القدسية ما يلي:

روى الترمذي في جامعه المسمى أيضًا بالسنن، عن أبي سعد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

«يقول الرب عزّ وجل: من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه عزّ وجلّ قال:

«إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيَّن ذلك، فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، فإن همّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة».

وفي باب صلاة الضحى روى الترمذي عن أبي الدرداء وأبي ذر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ عن الله عزّ وجل قال:

«ابن آدم، اركع لي من أول النهار أربع ركعات أكفك آخره».

وأكثر الأحاديث كان الرسول ﷺ يلقيها شفاهيا فتتلقفها أسماع الصحابة رضوان الله عليهم فتعيها ذاكرتهم، ولكن بجانب ذلك ما أملاه الرسول الأميّ عليه الصلاة والسلام من كتب بعث بها إلى عماله أو إلى الملوك ورؤساء العشائر، ومن معاهدات عقدها، واتفاقيات أبرمها كمعاهدة الحديبية مع قريش، وكدستور المدينة الذي كتب عقب الهجرة، والاتفاقات التي عقدها النبي ﷺ مع بعض القبائل، ونسوق هنا على سبيل المثال لنختم به المقال كتابه ﷺ الذي وجهه إلى هرقل يدعوه فيه إلى الإسلام.

روى هذا مسلم عن ابن عباس، وقد حدثه به أبو سفيان نفسه وقد تصادف – وهو لا يزال بعد يقود معركة قريش ضد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أن كان بالشام يوم وصل دحية الكلبي الصحابي الجليل بالكتاب إلى هرقل، وكان بالشام كذلك، يحدث أبو سفيان كيف استدعاه هرقل ومن معه من قريش مكة ذاك اليوم، ليلقي عليه بعض الأسئلة عن محمد ودينه، وذكر أبو سفيان أنه اضطر لقول الحق حيث أمر هرقل من مع أبي سفيان من قريش بتصحيح قوله إذا أخطاه الصواب، وكيف أن إجاباته عن الرسول أثارت إعجاب هرقل فقال: «إن يكن ما تقول حقًا فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغن ملكه ما تحت قدمي»، ثم دعا هرقل بكتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقرأه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، – أما بعد – فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، يا أهل الكتاب، تعالوا إلى تكلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بيعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون».

* * *

من الإعجاز البياني في القرآن الكريم

(٦- المائدة: ٦٨-٨٩)

بقلم: رئيس التحرير

١- قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٦٨].

في الآية بدهية واحدة:

الأولى: ما فائدة التكرار في قوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَّآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾.

والجواب أن التكرير للتأكيد. ذكره الرازي(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [المائدة:٦٩].

فإن قلت: قال الله تعالى في أول الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ثم قال في آخر الآية: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ فما فائدة هذا التكرير؟

قلنا: فيه فائدتان:

الأولى: أن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون، فالفائدة في هذا التكرير إخراجهم عن وعد عدم الخوف وعدم الحزن. ذكره الرازي(٢).

الفائدة الثانية: أنه تعالى أطلق لفظ الإيمان، والإيمان يدخل تحته أقسام، وأشرفها الإيمان بالله واليوم لآخر، فكانت الفائدة في الإعادة التنبيه على أن هذين القسمين أشرف أقسام الإيمان، وقد ذكرنا وجوهًا كثيرة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وكلها صالحة لهذا الموضع. ذكره الرازي(٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

فإن قلت: من البدهي أن من حرم الله عليه الجنة

كان مصيره إلى النار، فما فائدة التصريح بذلك؟

لم أجد في شيء من كتب التفسير التي بين يدي من تعرض له إلا أبا السعود، الذي أشار إلى الجواب عنه بالتفريق بين الأمرين، وتبعه الآلوسي. فقال أبوالسعود: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ فلن يدخلها أبدًا كما لا يصل المحرم عليه إلى المحرم؛ فإنها دار الموحدين وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في موضع الإضمار لتهويل الأمر وتربية المهابة ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾؛ فإنها هي المعدّة للمشركين، وهذا بيان لابتلائهم بالعقاب إثر بيانِ حرمانِهم الثوابَ(٤).

وقال الآلوسي: وَمَأْواهُ النَّارُ؛ فإنها المعدة للمشركين، وهذا بيان لابتلائهم بالعقاب إثر بيان حرمانهم الثواب، ولا يخفى ما في هذه الجملة من الإشارة إلى قوة المقتضي لإدخاله النار(٥).

٤- قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[المائدة:٧٥].

فإن قلت: ما فائدة التكرار في قوله: ﴿ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: كرر الأمر بالنظر لاختلاف المتعلق؛ لأن الأول أثر بالنظر في كونه تعالى أوضح لهم الآيات وبينها بحيث لا يقع معها لبس، والأمر الثاني: هو بالنظر في كونهم يصرفون عن استماع الحق وتأمله، أو في كونهم يقلبون ما بين لهم إلى الضد منه. ذكره أبوحيان(٦).

الثاني: وتكريرُ الأمر بالنظر للمبالغة في التعجيب. ذكره أبوالسعود، والآلوسي(٧).

٥- قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

١- من البدهي هنا أن الغلو لايكون حقا فما فائدة التقييد بـ«غيرالحق»؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: أنه للتقييد؛ فإن الغلو نوعان: غلو حق، وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده، ومن الغلوّ الّذي ليس باطلًا ما هو مثل الزّيادة في الوضوء على ثلاث غسلات، فإنّه مكروه، وغلو باطل، وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل، وذلك الغلو هو أن اليهود -لعنهم الله- نسبوه إلى الزنا وإلى أنه

كذاب، والنصارى ادعوا فيه الإلهية. ذكره الرازي، والزمخشري، وأبوحيان، وأبو السعود، وابن عاشور(٨).

الثاني: قال مقاتل: هم نصارى نجران والمعنى: لا تغلوا في دينكم، فتقولوا غيرالحق في عيسى. ذكره ابن الجوزي(٩).

الثالث: ومنهم من ذهب إلى أنها استثناء منقطع ويقدره: لكن الحق فاتبعوه. ذكره أبوحيان واستبعده - وأبو السعود(١٠).

الرابع: حالٌ من ضمير الفاعل أي لا تغلوا مجاوزين الحق. ذكره أبوالسعود، والآلوسي(١١).

الخامس: حال من دينكم أي لا تغلوا في دينكم حال كونه باطلًا. ذكره أبوالسعود، والآلوسي(١٢).

السادس: وتوصيفه به للتوكيد؛ فإن الغلو لا يكون إلا غير الحق على ما قاله الراغب. ذكره الآلوسي(١٣).

٢- فإن قلت: ذكر في أول الآية ضلالهم ثم ذكر إضلالهم ثم أعاد ذكر ضلاله، فما فائدة هذا التكرار؟

قلنا: الجواب من وجوه:

الأول: أنه تعالى وصفهم بثلاث درجات في الضلال، فبين أنهم كانوا ضالين من قبل ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى أنهم الآن ضالون كما كانوا، ولا نجد حالة أقرب إلى العبد من الله والقرب من عقاب الله تعالى من هذه الحالة. نعوذُ بالله منها. ذكره الرازي(١٤).

الثاني: ويحتمل أن يكون المراد أنهم ضلوا وأضلوا، ثم ضلوا بسبب اعتقادهم في ذلك الإضلال أنه إرشاد إلى الحق. ذكره الرازي(١٥).

الثالث: ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الأول الضلال عن الدين، وبالضلال الثاني الضلال عن طريق الجنة. ذكره الرازي(١٦).

وتعقبه أبوحيان فقال: وأبعد من ذهب إلى أنّ الضلال الأول عن الدّين، والثاني عن طريق الجنة(١٧).

الرابع: وقال ابن عطية: هذه المخاطبة هي للنصارى الذين غلوا في عيسى، والقوم الذين نهى النصارى عن اتباع أهوائهم، والذي دعا إلى هذا التأويل أن النصارى في غلوهم ليسوا على هوى بني إسرائيل؛ بل هم في الضد بالأقوال، وإنما اجتمعوا في

اتباع موضع الهوى؛ فالآية بمنزلة قولك لمن تلومه على عوج: هذه الطريقة طريقة فلان تمثله بآخر قد اعوج نوعًا من الاعوجاج، وإن اختلفت نوازله. ووصف تعالى اليهود بأنهم ضلوا قديمًا، وأضلوا كثيرًا من أتباعهم، ثم أكد الأمر بتكرار قوله: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ذكره الثعالبي(١٨).

وتعقبه أبوحيان فقال: وما ذهب إليه ابن عطية أيضًا تخصيص وتأويل بعيد في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٍ﴾ أن المراد بهم اليهود، وأن المعنى: لا تكونوا على هوى كما كان اليهود على هوى؛ لأن الظاهر النهي عن اتباع أهواء أولئك القوم(١٩).

الخامس: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ هم أئمتهم في النصرانية كانوا على الضلال قبل مبعث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ ممن شايعهم على التثليث، ﴿وَضَلُّواْ﴾ لما بعث رسول الله ﷺ ﴿عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾ حين كذبوه وحسدوه وبغوا عليه؛ فلاتكرار في ذلك. ذكره الزمخشري، وأبوالسعود، والآلوسي(٢٠).

السادس: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٍ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هؤلاء القوم هم أسلاف اليهود والنصارى ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم كثيرًا، ثم عين ما ضلوا عنه، وهو السبيل السوي الذي هو وسط في الدين، وهو خيرها فلا إفراط ولا تفريط؛ بل هو سواء معتدل خيار. ذكره أبوحيان، وابن الجوزي، والقرطبي، و البغوي، وأبوالسعود(٢١).

وعبر عن هذا المعنى ابن عاشور فقال: وقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٍ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ﴾ عطف على النّهي عن الغلوّ، وهو عطف عامّ من وجه على خاصّ من وجه؛ ففيه فائدة عطف العامّ على الخاصّ وعطف الخاصّ على العامّ، وهذا نهي لأهل الكتاب الحاضرين عن متابعة تعاليم الغُلاة من أحبارهم ورُهبانهم، الّذين أساءوا فهم الشريعة عن هوى منهم مخالف للدّليل؛ فلذلك سمّي تغاليهم أهواء؛ لأنّها كذلك في نفس الأمر وإن كان المخاطبون لا يعرفون أنّها أهواء، فضلّوا ودعوا إلى ضلالتهم، فأضلّوا كثيرًا مثل (قيافا) حَبر اليهود الّذي كفَّر عيسى - عليه السّلام - وحكم بأنّه يقتل، ومثل المجمع الملكاني الّذي سجّل عقيدة التثليث. وقوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، معناه من قبلكم. وقد كثر في كلام العرب حذف ما تضاف إليه قبلُ وبعدُ وغيرُ وحسبُ ودونَ، وأسماء الجهات، وكثر أن تكون

هذه الأسماء مبنيّة على الضمّ حينئذٍ، ويندر أن تكون معربة إلاّ إذا نُكّرت. وقد وجّه النحويّون حالة إعراب هذه الأسماء إذا لم تنكَّر بأنّها على تقدير لفظ المضاف إليه تفرقة بين حالة بنائها الغالبة وحالة إعرابها النّادرة، وهو كشف لسر لطيف من أسرار اللّغة.

وقوله: ﴿وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ مقابل لقوله: ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ فهذا ضلال آخر، فتعيّن أنّ سواء السّبيل الذي ضلّوا عنه هو الإسلام. والسواء المستقيمُ، وقد استعير للحقّ الواضح، أي قد ضلّوا في دينهم من قبل مجيء الإسلام، وضلّوا بعدَ ذلك عن الإسلام(٢٢).

السابع: وذهب بعض المتأولين إلى أنّ المعنى: يا أهل الكتاب من النصارى لا تتبعوا أهواء هؤلاء اليهود الذين ضلوا من قبل أي: ضل أسلافهم، وهم قبل مجيء محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأضلوا كثيرًا من المنافقين، وضلوا عن سواء السبيل الآن بعد وضوح الحق انتهى. ذكره ابن الجوزي(٢٣).

وذكره أبوحيان وتعقبه فقال: ولا حاجة لإخراج الكلام عن ظاهره من أنه نداء لأهل الكتاب طائفتي: اليهود، والنصارى. وأن قوله: ولا تتبعوا أهواء قوم، هم أسلافهم؛ فإن الزائغ عن الحق كثيرًا ما يعتذر أنه على دين أبيه وطريقته، كما قالوا: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَا ءابَاءنَا﴾ فنهوا عن اتباع أسلافهم، وكان في تنكير قوم تحقير لهم. وما ذهب إليه الزمخشري تخصيص لعموم من غير داعية إليه(٢٤).

الثامن: قال ابن كثير: قال: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧] أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه؛ فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء؛ فجعلتموه إلهًا من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم، شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديمًا، ﴿وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧] أي وخرجوا عن طريق الاستقامة و الاعتدال إلى طريق الغواية والضلال(٢٥).

التاسع: وقيل: الأول إشارة إلى ضلالهم عن مقتضى العقل، والثاني إلى ضلالِهم عما جاء به الشرع. ذكره أبو السعود، والآلوسي(٢٦).

العاشر: وقيل: إن ضمير ﴿ضَلُّواْ﴾ الأخير

عائد على – الكثير– لا على ﴿قَوْمٌ﴾ والفعل مطاوع للإضلال، أي إن أولئك القوم أضلوا كثيرًا من الناس، وأن أولئك الكثير قد ضلوا بإضلال أولئك هم – فلا تكرار. ذكره الآلوسي(٢٧).

الحادي عشر: وقيل: أيضا قد يراد – بالضلال الأول – الضلال بالغلو في الرفع والوضع مثلًا وكذا بالإضلال، ويراد – بالضلال عن سواء السبيل – الضلال عن واضحات دينهم وخروجهم عنه بالكلية. ذكره الآلوسي(٢٨).

الثاني عشر: وقال الزجاج: المراد بالضلال الأخير ضلالهم في الإضلال أي – إن هؤلاء ضلوا في أنفسهم وضلوا بإضلالهم لغيرهم – كقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ (النحل:٥٢)، ونقل هذا عن الراغب. ذكره الآلوسي(٢٩).

الثالث عشر: وجوز أيضًا أن يكون قوله سبحانه وتعالى: ﴿عَن سَوَآءِ﴾ متعلقًا بـ﴿قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾، إلا أنه لما فصل بينه وبين ما يتعلق به أعيد ذكره، كقوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران:١٨٨). ذكره الآلوسي(٣٠).

٦- قال الله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [المائدة:٧٨].

فإن قلت: قد علم سبب اللعن بإسنادها إلى من تعلق به الوصف الدال على العلية، فما فائدة ذكره؟

أجيب بأنه ذكر هذا على سبيل التوكيد، وإلا فقد فهم سبب اللعنة بإسنادها إلى من تعلق به الوصف الدال على العلية، وهو الذين كفروا. كما تقول: رجم الزاني، فيعلم أنّ سببه الزنا. كذلك اللعن سببه الكفر، ولكن أكد بذكره ثانية في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ﴾ ذكره أبوحيان(٣١).

٧-قال الله تعالى: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة:٧٩].

فإن قيل: الانتهاء عن الشيء بعد أن صار مفعولًا غير ممكن فلم ذمهم عليه؟

قلنا: الجواب عنه من وجوه:

الأول: أن يكون المراد لا يتناهون عن معاودة

منكرفعلـــوه. ذكـــره الـــرازي، والبيـــضاوي، و الزمخشري(٣٢).

الثـاني: لا يتنـاهون عـن منكـر أرادوا فعلـه وأحضروا آلاته وأدواته. ذكره الرازي والبيضاوي، والزمخشري(٣٣).

الثالـث: لا يتنـاهون عـن الإصرار عـلى منكـر فعلوه. ذكره الرازي، والزمخشري(٣٤).

الرابع: لا يتناهون عن مثل منكر فعلوه. ذكره البيضاوي، والزمخشري(٣٥).

الخامس: قال ابن عاشور: وجملة: ﴿كَانُـواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُـوهُ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا جوابًا لسؤال ينشأ عن قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَـا عَـصَواْ﴾، وهـو أن يقـال: كيـفَ تكـون أمّـة كلّهـا مُتمالئـة عـلى العصيان والاعتداء، فقال: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَـن مُّنكَـرٍ فَعَلُـوهُ﴾. وذلك أن شأن المناكر أن يبتدئها الواحد والنّفَر القليل، فإذا لم يجدوا من يغيِّر عليهم تزايدوا فيها ففشت واتّبَع فيها الدّهماءُ بعضهم بعضًا، حتّى تعمّ ويُنسى كونها مناكرَ؛ فلا يَهتدي النّاس إلى الإقلاع عنها والتّوبةِ منها؛ فتصيبهم لعنة الله. وقد روى التّرمذي وأبو داود من طرق عن عبد الله بن مسعود بألفاظ متقاربـة قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «كـانَ الرجـل مـن بني إسرائيـل يلقَى الرجـل إذا رآه على الذنب فيقول: يا هذا اتّقِ الله ودَع ما تصنع، ثمّ يلقـاه مـن الغـد، فـلا يمنعـه ذلـك أن يكـون أكيلَـه وخليطَه وشريكَه، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ثُمّ قرأ: ﴿لُعِـنَ ٱلَّذِيـنَ كَفَـرُواْ مِـنۢ بَـنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إلى قوله: ﴿فَـٰسِقُونَ﴾ (المائدة:٧٨-٨١) ثُمّ قال: والّذي نفسي بيده لتأمُرُنّ بالمعروف، ولَتَنْهَـوُنّ عـن المنكـر، ولتأخُـذُنّ عـلى يـد الظّـالم، ولتأطُرُنَّـهُ عـلى الحـقّ أطْـرا، أوْ لَيـضربَنّ الله قلـوبَ بعضكم على بعض أو ليلعنُكم كما لَعنهم»(٣٦).

وأطلـق التنـاهي بـصيغة المفاعلـة عـلى نهـي بعضهم بعضًا باعتبار مجموع الأمّة، وأنّ نَاهيَ فاعل المنكر منهم هو بصدد أن يَنهاه المنهيّ عندما يرتكب هو مُنكرًا؛ فيحصل بذلك التّناهي. فالمفاعلة مقدّرة وليست حقيقيَّة، والقرينة عموم الضّمير في قولـه: ﴿فَعَلُـوهُ﴾؛ فإنّ المنكر إنّما يفعله بعضهم ويسكُت عليه البعض الآخر، وربّما فعل البعضُ الآخر منكرًا آخرَ وسَكت عليه البعض الّذي كان فعَل منكرًا قبله وهكذا، فهم يصانعون أنفسهم. والمراد بـ﴿مَا كَانُـواْ يَفۡعَلُونَ﴾ تَرْكُهم التناهيَ. وأطلق على ترك التناهي

لفظ الفِعل في قوله: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ مع أنّه ترك؛ لأنّ السكوت على المنكر لا يخلو من إظهار الرّضا به والمشاركة فيه(٣٧).

السادس: قال أبوالسعود: على أن المضي المعتبر في الصفة، إنما هو بالنسبة إلى زمان النزول لا إلى زمان النهي حتى يلزمَ كونُ النهي بعد الفعل، فلا حاجة إلى تقدير المعاودة أو المِثْل أو جعلِ الفعل عبارةً عن الإرادة، على أن المعاودة كالنهي لا تتعلق بالمنكر المفعول، فلا بد من المصير إلى أحد ما ذُكر من الوجهين، أو إلى تقدير المثل، أو إلى جعل الفعل عبارة عن إرادته، وفي كل ذلك تعسفٌ لا يخفى. وذكره الآلوسي(٣٨).

٨- قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢].

فإن قلت: لوقال: ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا النصاري لكان أوجز فما وجه هذا الإسهاب؟

قلنا: فيه وجوه:

الأول: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ﴾ عبر عنهم بذلك إشعارًا بقرب مودتهم حيث يدّعون أنهم أنصارُ الله وأَوْدُ أهل الحق، وإن لم يظهروا اعتقاد حقية الإسلام. ذكره أبوالسعود، والآلوسي(٣٩).

الثاني: وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا متمسكين بحقيقة النصرانية؛ بل ذلك قول منهم وزعم. ذكره أبوحيان، والبقاعي، والثعالبي(٤٠).

الثالث: قال ابن عاشور: وعبّر عن النصارى بـ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ﴾ هُنا(٤١)، وفي قوله الآتي: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ﴾ [المائدة:٨٢] تسجيلًا عليهم بأنّ اسم دينهم مشير إلى أصل من أصوله، وهو أن يكون أتباعه أنصارًا لِما يأمر به الله، ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الصف:١٤]. ومن جملة ذلك أن ينصروا القائم بالدّين بعْد عيسى من أتباعه، مثل بُولس وبَطرس وغيرهما من دعاة الهدى؛ وأعظم من ذلك كلّه أن ينصروا النبيَ المبشَّر به في التَّوراة والإنجيل، الّذي يجيء بعد عيسى قبل منتهى العالم، ويخلِّص النّاس من الضلال ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ

وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران:٨١] الآية. فجميع أتباع الرسل قد لزمهم ما التزمه أنبياؤهم وبخاصّة النّصارى، فهذا اللقب، وهو النصارى، حجّة عليهم قائمة بهم متلبّسة بجماعتهم كلّها. ويفيد لفظ ﴿قَالُوٓا﴾ بطريق التعريض الكنائي أنّ هذا القول غير موفًّى به، وأنّه يجب أن يوفّى به. ذكره الآلوسي(٤٢).

٩- قال الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٨٩].

في الآية بدهيتان:

الأولى: فإن قلت: التشديد للتكرير مرة بعد مرة، فالقراءة بالتشديد توجب سقوط الكفارة عن اليمين الواحدة؛ لأنها لم تتكرر، وهذا معلوم بطلانه؟

فأجاب الواحدي رحمه الله عنه من وجهين:

الأول: أن بعضهم قال: عقد بالتخفيف والتشديد واحد في المعنى. ذكره الرازي، والنيسابوري(٤٣).

الثاني: هب أنها تفيد التكرير كما في قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ (يوسف:٢٣) إلا أن هذا التكرير يحصل بأن يعقدها بقلبه ولسانه، ومتى جمع بين القلب واللسان فقد حصل التكرير، أما لو عقد اليمين بأحدهما دون الآخر لم يكن معقدًا، وأما من قرأ بالألف فإنه من المفاعلة التي تختص بالواحد مثل عافاه الله، وطارقت النعل، وعاقبت اللص؛ فتكون هذه القراءة كقراءة من خفف. ذكره الرازي، والآلوسي، والنيسابوري(٤٤).

الثانية: فإن قلت: علم من قوله: ﴿فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ﴾ أن ما يلي بيان للكفارة فما فائدة قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ﴾؟

أجاب عنه البقاعي فقال: ولما تم ذلك أكده في النفوس وقرره بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر العدل الحسن الذي ذكر ﴿كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أي المعقدة ﴿إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ وأردتم نكثها سواء كان ذلك قبل الحنث أو بعده(٤٥).

* * *

الهوامش:

(١) الرازي١٢/٤٠١.

(٢) الرازي١٢/٤٠٢.

(٣) الرازي١٢/٤٠٢.

(٤) أبو السعود في تفسير الآية.

(٥) الآلوسي تفسير الآية.

(٦) أبو حيان في تفسير الآية.

(٧) أبو السعود ٣/٧١؛ الآلوسي٦/٢١٠.

(٨) الرازي١٢/٤١٠؛ الزمخشري تفسير الآية؛ أبوحيان في تفسير الآية؛ أبو السعود ٣/٧١؛ ابن عاشور في تفسيرالآية.

(٩) ابن الجوزي في تفسيرالآية.

(١٠) أبوحيان في تفسير الآية؛ أبو السعود ٣/٧١.

(١١) أبو السعود ٣/٧١؛ الآلوسي٦/٢١١.

(١٢) أبو السعود ٣/٧١؛ الآلوسي٦/٢١١.

(١٣) الآلوسي٦/٢١١.

(١٤) الرازي ١٢/٤١٠.

(١٥) الرازي ١٢/٤١٠.

(١٦) الرازي ١٢/٤١٠.

(١٧) ابن الجوزي في تفسيرالآية.

(١٨) الثعالبي في تفسير الآية .

(١٩) أبوحيان في تفسير الآية .

(٢٠) الزمخشري في تفسير الآية؛ أبوالسعود ٣/٧٣؛ الآلوسي ٦/٢١١.

(٢١) أبوحيان في تفسير الآية؛ ابن الجوزي في تفسيرالآية؛ القرطبي٦/٢٥١؛ البغوي في تفسير الآية؛ أبوالسعود ٣/٧٣.

(٢٢) ابن عاشور تفسير الآية.

(٢٣) ابن الجوزي في تفسيرالآية.

(٢٤) أبوحيان في تفسير الآية.

(٢٥) ابن كثير ٣/١٤٤.

(٢٦) أبوالسعود ٣/٧٣؛ الآلوسي٦/٢١١.

(٢٧) والآلوسي٦/٢١١.

(٢٨) الآلوسي٦/٢١١.

(٢٩) الآلوسي٦/٢١١.

(٣٠) الآلوسي٦/٢١١.

(٣١) أبوحيان تفسير الآية.

(٣٢) الرازي ١٢/٤١٢؛ البيضاوي ٢/٣٥٤؛ الزمخشري في تفسير الآية.

(٣٣) الرازي ١٢/٤١٢؛ البيضاوي ٢/٣٥٤؛ الزمخشري في تفسير الآية.

(٣٤) الرازي ١٢/٤١٢؛ الزمخشري في تفسير الآية.

(٣٥) البيضاوي ٢/٣٥٤؛ الزمخشري في تفسير الآية.

(٣٦) الحديث: رواه أبوداود في الملاحم باب الأمر والنهي [٤٣٣٢]؛ الترمذي في التفسير باب (ومن سورة المائدة) ٨/٤١٢ [٣١٤٥]؛ ابن ماجة في السنن في الفتن باب الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ٢/١٣٢٧ [٤٠٩٢].

(٣٧) ابن عاشور تفسيرالآية.

(٣٨) أبوالسعود٣/٧٣؛ الآلوسي٦/٢١٣.

(٣٩) أبوالسعود ٢/٢٨٠؛ الآلوسي٥/١٠١.

(٤٠) أبوحيان في تفسير الآية؛ نظم الدرر في تناسب الأيات والسور للبقاعي ٢/٤٤٧؛ الثعالبي١/٤٣٠.

(٤١) قلت: يعني به الآية ١٤ من سورة المائدة.

(٤٢) ابن عاشور في تفسير الآية؛ الآلوسي٥/١٠١.

(٤٣) الرازي ١٢/٤١٨؛ النيسابوري٣/٢٠٣.

(٤٤) الرازي ١٢/٤١٨؛ الآلوسي٥/١١٣؛ النيسابوري٣/٢٠٣.

(٤٥) البقاعي ٢/٢٥٧.

الإلحاد والزندقة: الحقيقة والموقف الإسلاميّ

بقلم: الأستاذ أختر إمام عادل القاسمي(*)

الإسلام هو دينُ الله الحقُّ الذي ارتضاه لعباده، وقد أرسى له أصولًا محكمة، وقواعدَ كليةً، وعقائدَ راسخةً، وأحكامًا وحدودًا شرعيةً، جاءت مفصَّلةً في كتاب الله العزيز، وسنة رسوله ﷺ، وآثار الصحابة الكرام رضي الله عنهم، ثم دوَّنها علماءُ الأمة وحرَّروها في مصنفات الفقه وأصوله والعقيدة. وقد نهض السلفُ الصالح – من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان – بواجب بيان الدين وتقريره، فأوضحوا معالمه، وأرسوا قواعده، وبيَّنوا معاني النصوص الشرعية بيانًا شافيًا، حتى غدا منهجهم في الفهم والاستدلال هو الميزانَ الذي تُعرف به سلامةُ الاعتقاد، وصحةُ الفهم، واستقامةُ السلوك.

ومن ثَمَّ، فإنَّ السلفَ الصالح هم القدوةُ العلمية والعملية لكلِّ مَن جاء بعدهم، ولا يستقيم أحدٌ على صراط الحق إلا إذا التزم سبيلهم، واقتفى آثارهم، واستضاء بفهمهم لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ إنهم أعلمُ الأمة بالنصوص، وأفقهُ الناس بمقاصد الشريعة، وأصدقُهم إيمانًا، وأقومُهم منهجًا. وعليه، فإنَّ الواجب على الخلف أن يجعلوا فهمَ السلف ميزانًا لأفكارهم، ومحكًّا لاجتهاداتهم، وأن يعرضوا نتائجَ بحوثهم واستنباطاتهم على ما قرره أئمةُ الهدى من السلف؛ فما وافق منهجهم قُبِل، وما خالفه رُدَّ؛ لأنَّ الخلف إنما يبلغون رتبةَ الإمامة إذا أحسنوا التلقي عن سلفهم، وأخلصوا الاتباع لهم.

ومن هنا، فإنَّ الانحراف عن منهج السلف في فهم النصوص الشرعية هو حقيقةُ البدعة وأصلُها؛ إذ البدعة ليست مجرد إحداث قول أو عمل، وإنما هي العدول عن الفهم الذي كان عليه القرونُ المفضلة، واستبدالُه بمناهج مستحدثة وآراء مجردة، الأمر الذي قد يجرُّ صاحبَه إلى الضلال؛ بل وربما أفضى به إلى الزندقة والخروج عن جادة أهل السنة والجماعة.

وهذا هو الذي عُرف به أهلُ الأهواء والفرق المنحرفة عبر تاريخ الأمة؛ فقد أعرضوا عن منهج السلف، واستقلُّوا بفهم النصوص، وأخضعوا القرآنَ الكريم والسنةَ النبوية وقواعدَ الفقه الإسلامي لمقاييس العقول المجردة، أو المناهج الدخيلة، فضلُّوا

(*) رئيس الجامعة الربانية، منوروا شريف، بيهار – الهند.

في أنفسهم، وكانوا سببًا في إضلال غيرهم.

غير أنَّ الله سبحانه وتعالى، تحقيقًا لوعده بحفظ هذا الدين، لم يُخلِ عصرًا من العلماء الربانيين، والأئمةِ المصلحين، الذين حملوا راية الإصلاح والتجديد، فنافحوا عن عقيدة الإسلام، وردُّوا شبهات أهل الباطل، وأبطلوا تأويلات أهل البدع، وجدَّدوا للأمة أمرَ دينها، حتى يبقى الإسلام نقيًّا صافيًا كما أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ، مصداقًا لقوله ﷺ:

«يرث هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تأويل الجاهلين وانتحال المبطلين وتحريف الغالين»(١).

ويدلُّ هذا الحديث على أنَّ أعظمَ ما يهدِّد الأمةَ الإسلامية ليس أعداءَها الظاهرين فحسب؛ بل أعداؤها المختفُون الذين يتسلَّلون إليها في كل عصر تحت ستار التأويلات الباطلة، والتحريفات الفاسدة، والتلبيس على الناس، وانتحال الباطل. ومن رحم هذه التأويلات المنحرفة، والتحريفات المفسدة، يولد الإلحادُ والزندقة، وينشأ الانحراف عن صراط الله المستقيم. وهذا الداءُ من أخطر الأدواء الفكرية والعقدية؛ إذ يسري سُمُّه في الأفراد والمجتمعات سريانًا خفيًّا، حتى يستولي على القلوب والعقول من حيث لا يشعر كثيرٌ من الناس، ولذلك فإنَّ اكتشافه والوقوف على حقيقته ليس بالأمر الهيِّن. ولهذا عُدَّت الزندقةُ في السنة النبوية من أخطر الفتن التي تُبتلى بها الأمة؛ لأنها لا تقتصر على إفساد الفكر والسلوك؛ بل قد تنتهي بصاحبها إلى نقض أصول الإيمان، وسلبه نعمةَ الهداية، فيخرج من دائرة الإيمان إلى مهاوي الكفر والضلال.

فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا الزنادقة»(٢).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إذا كان يوم القيامة غفر الله لأهل الأهواء أهواءهم وحوسب الناس بأعمالهم إلا الزنادقة»(٣).

ويتجلَّى مدى خطورة هذه الفتنة فيما اتخذه أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في عهد خلافته، من إجراءاتٍ حاسمة تجاه هذه الفرقة؛ إذ اضطرَّ إلى إصدار الأمر بقتل أصحابها، ثم أُحرقت جثثُهم زجرًا لغيرهم وعبرةً لمن يعتبر. ولم يقتصر الأمر على ذلك؛ بل أُتلف كذلك تراثُهم المكتوب، وأُحرق ما خلَّفوه من مؤلفاتٍ وكتبٍ كانت تشتمل على قدرٍ كبيرٍ من أفكارهم ومعتقداتهم، وما وضعوه من الروايات المختلقة والموضوعة التي سعوا إلى نشرها بين الناس.

«عَنْ عِكْرِمَةَ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ بِقَوْمٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الزَّنَادِقَةِ، وَمَعَهُمْ كُتُبٌ، فَأَمَرَ بِنَارٍ فَأُجِّجَتْ ثُمَّ أَحْرَقَهُمْ وَكُتُبَهُمْ. قَالَ عِكْرِمَةُ: فَبَلَغَ ذَلِكَ ابْنَ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتُ أَنَا لَمْ أُحْرِقْهُمْ لِنَهْيِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَقَتَلْتُهُمْ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ. وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

(حم) قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاري»[٤].

ولذلك لم يفتأ علماءُ الأمة في مختلف العصور، ينهضون بمسؤوليتهم العلمية والشرعية تجاه هذه الفتن، ويبرهنون على ما امتازوا به من يقظةٍ وحسٍّ عالٍ بخطرها، فتتبَّعوا مظاهرها، وكشفوا شبهاتها، من خلال دروسهم ومحاضراتهم، ومؤلفاتهم ورسائلهم، كما حرَّروا الضوابطَ التي تُعرف بها حدودُ الكفر والإلحاد، والزندقة والتلبيس، وميَّزوا بين هذه المفاهيم تمييزًا دقيقًا.

* فمن ذلك أنَّ كفرَ المرتد كفرٌ ظاهرٌ معلَن، بخلاف الزنديق؛ فإن كفره كفرٌ باطنٌ مستتر. وكذلك فإن توبةَ المرتد تُقبل شرعًا، بينما لا تُقبل توبةُ الزنديق على ما قرره جمهور الفقهاء في أحكام الزنادقة.

ومن الفروق بينهما أيضًا أن المرتد هو من كان مسلمًا ثم رجع عن الإسلام واختار الكفر بعد إيمانه، أما الزنديق فلا يُشترط في حقه أن يكون قد سبق له الدخول في الإسلام؛ بل كلُّ من أظهر الإسلام وأبطن اعتقادًا كفريًا عُدَّ زنديقًا في اصطلاح الفقهاء.

ومن الفروق بين الزنديق والمنافق أن المنافق لا يؤمن أصلًا بنبوة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان يُظهر الإسلام بلسانه، أما الزنديق فإنه يُظهر الإقرار بنبوة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، غير أنه يُضمِر في الباطن معتقداتٍ كفريةً تناقض حقيقة الإسلام.

ومن المهم في هذا المقام أيضا أن نعرف حقيقة الكفر الباطن، وهل المراد به مجرد كتمان الكفر وعدم التصريح به أمام الناس؟ أم يدخل فيه أيضًا من يُنكر ضرورات الدين وقطعيات الشريعة، غير أنه يُلبس ذلك لباسَ التأويل، ويعرضه في صورةٍ علمية أو شرعية مقبولة؟ وهل يُعد هذا من الكفر الظاهر، أم من الكفر الخفي؟ وبناءً على ذلك، هل يُلحق صاحبه بالمرتد، أم يُعد من جملة الزنادقة؟

والذي يترجح عندي أنَّه لا تعارض بين الأمرين؛ فمن أخفى كفره عن الناس على الإطلاق فهو زنديق، كما أنَّ من ستر كفره وراء ستار التأويلات الباطلة، وألبسه ثوب العبارات المزخرفة والألفاظ المموَّهة، فهو أيضًا زنديق؛ لأن المقصود من الزندقة هو كتمان الكفر، وهذا المقصود متحقق في الصورتين جميعًا؛ بل هو في الصورة الثانية أبلغ وأدق. وذلك لأن الكفر في الصورة الأولى قد ينكشف للناس في وقتٍ من الأوقات، أما في الصورة الثانية فإن احتمال انكشافه أضعف؛ إذ يُقدَّم الكفر نفسُه في صورة الإسلام، ويُلبَس لباسَ الشرع، ويُصاغ في قالب التأويل والاجتهاد، فيعسر على عامة الناس إدراك حقيقته والتمييز بينه وبين الحق.

والتلبيس في حقيقته لونٌ من ألوان الكتمان؛ فالمرتد أو الكافر يُظهر إنكارَه لعقائد الإسلام صراحةً، أما الزنديق والملحد فإنهما يُخفيان هذا الإنكار

تحت ستار التأويل والتلبيس، ويعرضانه في صورةٍ تبدو مقبولة، حتى يظنهما عامة الناس من أهل الإسلام، مع أن حقيقتهما أنهما مرتدان أو كافران.

بل إن معنى الزندقة نفسه يتضمن الانحراف الفكري والتلبيس المعنوي، ولهذا وُصفت طوائفُ عديدة في تاريخ الإسلام بالزندقة، كالباطنية، والملاحدة، والقرامطة، والإسماعيلية، والنصيرية، والدروز، والتيامنة، وغيرها؛ إذ كان القاسم المشترك بينها جميعًا هو ستر العقائد الباطلة بثوب التأويل، وإظهارها في صورة الحق.

ومن ثَمَّ، فإن التفريق بين «الزنديق العرفي»، و«الزنديق الاجتماعي»، و«الزنديق الشرعي» أو «الاصطلاحي»، اعتمادًا على مجرد الفروق اللفظية، لا يظهر لي أنه قائم على أساسٍ متين؛ بل هو أقرب إلى التكلف العلمي؛ إذ لا أقف – فيما أعلم – على أصلٍ لهذا التقسيم في كلام علماء السلف أو في مصنفاتهم.

ويؤيد هذا الفهم ما قرره الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله، وهو أول من أفرد – فيما نعلم – حقيقةَ الزندقة وأصولَ الكفر والإلحاد بالتأليف المستقل في كتابه «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة»؛ فإنه جعل منشأ الزندقة وأصلها التأويلَ الفاسد والتلبيس. ولهذا عقد في كتابه فصلًا مستقلًا للكلام على التأويلات الفاسدة، وبيَّن فيه ما يكون منها بدعةً، وما يبلغ بصاحبه حدَّ الكفر، وقرر أن الإلحاد والزندقة إنما ينشآن عن التأويلات الباطلة.

وعلى هذا الأساس يرى الإمام الغزالي أن كل تأويلٍ يستلزم إنكارَ القطعيات الشرعية، أو يفضي إلى تكذيب الأنبياء عليهم السلام، فهو من الزندقة. فمن أنكر القيامة مطلقًا فهو صاحب زندقةٍ مطلقة، ومن أقرَّ بالقيامة وأنكر ما يكون فيها من النعيم أو العذاب، أو ما أخبر به الشرع من أحوالها، فهو صاحب زندقةٍ مقيَّدة، إلى غير ذلك من الصور التي فصَّلها في كتابه.

ومع ذلك، فلم يذكر الإمام الغزالي – فيما وقفنا عليه من كلامه – أن من شروط تحقق الزندقة إخفاءُ تلك التأويلات الباطلة وكتمانُها عن عامة الناس؛ بل جاءت مناقشاته دائرةً على نفس التأويل الفاسد وآثاره العقدية، دون اشتراط بقائه في دائرة الكتمان. وفيما يأتي نذكر نماذج من نصوص الإمام الغزالي الدالة على ذلك:

«اعلم أن كل من نزَّل قولًا من أقوال الشرع على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين، وإنما التكذيب أن ينفي جميع هذه المعاني، ويزعم أن ماقاله لامعنى له، وانما هو كذب محض، وغرضه فيما قاله التلبيس أومصلحة الدنيا، وذلك هو الكفر المحض والزندقة (ص٦٧).... فإن كان تأويله في أمر لايتعلق بأصول العقائد ومهماتها فلاتكفره....، نعم إن كان فتح هذا الباب والتصريح به يتداعى إلى تشويش قلوب العوام، فيبدع به صاحبه في كل

ما لم يؤثر عن السلف ذكره.... فأما مايتعلق من هذا الجنس بأصول العقائد المهمة، فيجب تكفير من يغير الظاهر بغير برهان قاطع، كالذى ينكر حشر الأجساد، وينكر العقوبات الحسية فى الآخرة بظنون وأوهام واستبعادات من غير برهان قاطع، فيجب تكفيره قطعًا.... وهو مذهب أكثر الفلاسفة .... وهذه أول درجات الزندقة، وهي رتبة بين الاعتزال وبين الزندقة المطلقة؛ فإن المعتزلة يقرب منهاجهم من منهاج الفلاسفة إلا في هذا الأمر الواحد، وهو أن المعتزلي لايجوّز الكذب علىٰ رسول الله ﷺ بمثل هذا العذر؛ بل يؤول الظاهر مما ظهر له بالبرهان خلافه، والفلسفي لاتقتصر مجاوزته للظواهر علىٰ مايقبل التأويل على قرب أو على بعد، وأما الزندقة المطلقة فهي أن ينكر أصل المعاد عقليًا وحسيًا وينكر الصانع للعالم أصلًا ورأسًا، أما إثبات المعاد بنوع عقل مع نفي الآلام واللذات الحسية وإثبات الصانع مع نفي علمه بتفاصيل الأمور، فهي زندقة مقيدة بنوع اعتراف بصدق الأنبياء. وظاهر ظني - والعلم عند الله - أن هٰؤلاء هم المرادون بقوله ﷺ: «ستفترق أمتي نيفًا وسبعين فرقة كلهم في الجنة إلا الزنادقة وهي فرقة»[٥].

* ومن العلماء الذين سلكوا هذا المسلك أيضًا الحافظُ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، حيث عدَّ بعضَ التأويلات المخالفة لأحكام الشريعة من جملة الزندقة. فقد نقل عن الإمام القرطبي أنَّ طائفةً من المتصوفة تُعَدُّ من الزنادقة؛ لاعتقادهم أن أولياء الله قد بلغوا منزلةً يرتفعون معها عن التكاليف الشرعية، فلا يعودون محتاجين إلى العمل بأحكام الشريعة؛ لأنهم - بزعمهم - قد وصلوا إلى الله تعالى، وأن المقصود من التكاليف الشرعية إنما هو تحقيق هذا الوصول، فإذا حصل المقصود سقطت الوسيلة، ولم تبقَ الحاجة إلى الالتزام بالأحكام الشرعية، وإنما تكون تلك الأحكام لازمةً لعامة الناس دون الخاصة. تعالى الله عما يقولون، وتنزَّه شرعه عما يزعمون. وفيما يلي نص كلام الحافظ ابن حجر:

«ذهب قوم من الزنادقة إلى سلوك طريقة تستلزم هدم أحكام الشريعة، فقالوا: إنه يستفاد من قصة موسى والخضر أن الأحكام الشرعية العامة تختص بالعامة والأغبياء، وأما الأولياء والخواص فلا حاجة بهم إلى تلك النصوص؛ بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب على خواطرهم، لصفاء قلوبهم عن الأكدار وخلوّها عن الأغيار. فتنجلي لهم العلوم الإلهية والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات ويعلمون الأحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما ينجلي له من تلك العلوم عما كان عند موسى، ويؤيده الحديث المشهور: «استفت قلبك وإن أفتوك» قال القرطبي: وهذا القول زندقة وكفر؛ لأنه إنكار لما علم من الشرائع»[٦].

* ومن الأئمة الذين قرروا هذا الأصل كذلك الإمامُ المحدِّث شاه ولي الله الدهلوي رحمه الله (ت١١٧٦هـ)، فقد ذهب إلى أن كلَّ تأويلٍ يصادم قطعيَّات الكتاب والسنة وإجماع الأمة يُعدُّ من الزندقة. ويرى رحمه الله أن الزنديق هو من يُنكر ضرورات الدين والحقائقَ الشرعية الثابتة عن طريق التأويلات الباطلة، فيُظهر الإقرارَ بالنصوص في ظاهر الأمر، ثم يُفرغها من معانيها التي دلَّ عليها الشرع، وصحَّت بها النصوص، وأجمع عليها سلفُ الأمة.

فمن ذلك أن يُقرَّ بأن القرآن حق، وأن ما ورد فيه من ذكر الجنة والنار حقٌّ كذلك، ثم يفسرهما تفسيرًا يخالف ما كان عليه الصحابة والتابعون، وما انعقد عليه إجماع الأمة؛ فيزعم – مثلًا – أن الجنة ليست حقيقةً قائمةً في الخارج، وإنما هي حالةٌ من الفرح والسرور تنشأ عن التحلي بالملكات الفاضلة، وأن النار ليست إلا حالةً من الندم والحسرة تنشأ عن الاتصاف بالملكات الذميمة، وأنه لا وجود لهما على الحقيقة خارج الذهن.

وكذلك الشأن في إنكار عذاب القبر، وفتنة منكرٍ ونكير، والصراط، والحساب يوم القيامة، وشفاعة النبي ﷺ، ورؤية الله تعالى، وسائر ما ثبت بالأدلة الشرعية القطعية؛ فإن إنكار هذه الحقائق، سواء أكان بدعوى عدم الثقة بالروايات، أم كان في صورة تأويلاتٍ باطلة تُعارض ما أجمع عليه أهل العلم؛ فإنه يُعدُّ عند شاه ولي الله رحمه الله من الزندقة، ولا يختلف حكمه باختلاف الأسلوب الذي يُتوصَّل به إلى هذا الإنكار. وفيما يلي نصُّ كلام شاه ولي الله رحمه الله بتمامه:

«وان اعترف به ظاهرًا وباطنًا؛ لكنه يفسر بعض ماثبت من الدين ضرورة بخلاف مافسره الصحابة والتابعون وأجمعت عليه الامة، فهو الزنديق، كما إذا اعترف بأن القرآن حق ومافيه من ذكر الجنة والنار حق؛ لكن المراد بالجنة الابتهاج الذى يحصل بسبب الملكات المحمودة، والمراد بالنار هي الندامة التي تحصل بسبب الملكات المذمومة، وليس في الخارج جنة ولانار، فهو زنديق. وقوله ﷺ: «أولئك الذين نهاني الله عنهم في المنافقين دون الزنادقة .... ثم التأويل تأويلان: تأويل لايخالف قاطعًا من الكتاب والسنة واتفاق الأمة، وتأويل يصادم ماثبت بقاطع فذلك الزندقة، فكل من أنكر الشفاعة أو أنكر رؤية الله تعالى يوم القيامة، أو أنكر عذاب القبر وسؤال المنكر والنكير، أو أنكر الصراط والحساب سواء قال: لا أثق بهؤلاء الرواة، أو قال: أثق بهم؛ لكن الحديث مؤول، ثم ذكر تاويلًا فاسدًا لم يسمع ممن قبله، فهو الزنديق»(٧).

* ومن أوسع من بسط الكلام في هذه المسألة العلامةُ ابن عابدين الشامي رحمه الله (ت١٢٥٢هـ)، حيث تناولها ببحثٍ مستفيض، وقرر أن كفر الزنديق إنما يكون مستورًا تحت ستار التأويل

والتلبيس. وعلى هذا الأساس أجاب عن الإشكال الـذي قـد يـورده بعـضهم، وهـو: كيـف يُوصـف شـخصٌ بأنـه داعيـةٌ معـروف إلى الزندقـة، مـع أن الزندقة مبناها على إخفاء الكفر وكتمانه؟... و لتعزيز هـذا التقرير، استشهد العلامة ابـن عابـدين بكتـاب الإمام أبي حامد الغزالي «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة». وقد سبق ذكره؛ حيث عدَّ الإمام الغزالي من الزندقة تلك المعتقدات الصوفية المنحرفة التي تزعم أن بعض الأولياء قد ارتفعوا عن التكاليف الشرعية، وأنهم لم يعودوا مخاطبين بأحكام الشريعة، بـل تتجـاوز ذلـك إلى اسـتباحة شرب الخمـر وسـائر المحرمات باسم التصوف والسلوك؛ بل إن الإمام الغزالي يرى أن اصحاب هذه الأفكار أشد خطرًا من أولئـك الـذين يُنكـرون تحـريم الخمـر صراحـةً؛ لأن كفـر المعلنـين بإنكـارهم ظـاهرٌ مكـشوف، فـلا يكـاد مسلمٌ يغترّ بأقوالهم أو يُصغي إليها، بخلاف هؤلاء؛ فـإنهم يُلبـسون بـاطلهم لبـاس التـصوف والولايـة والتقوى، فيُقبل عليهم عامة الناس، ويغترون بهم، مـن غـير أن يـشعروا أنهـم قـد استحلّوا بـسبب تلـك التأويلات ما حرمه الله تعالى. كما ذكر العلامة ابن عابـدين عـددًا مـن الفـرق المنحرفـة التـي اشـتهرت بالـدعوة إلى الزندقـة تحـت غطـاء التأويـل والتلبيس، كالـدروز، والتيامنـة، والنـصيرية، والإسـماعيلية، والقرامطة، وغيرها، وإن كانت تختلف فيما بينها في بعـض الخـصائص والمـسائل. وفي هـذا الـسياق قـرر أيـضًا أن ثمـة قـدرًا مـشتركًا يجمـع بـين الزنـديق، والمنافق، والملحد، يتمثل في إظهار خلاف ما يبطنه صـاحبه، وإن اختلفـت صـور ذلـك وأسـبابه وأحكامـه. فيـصدق علـيهم اسـم الزنـديق والمنـافق والملحد. وفيما يأتي جملةٌ من نصوصه في «ردالمحتار» الدالة على ذلك:

* قولـه (المعـروف) أي بالزندقـة الـداعي أي الـذي يـدعو الناس إلى زندقته اه ح فإن قلت: كيف يكـون معروفًـا داعيًـا إلى الـضلال، وقـد اعتـبر في مفهومه الشرعي أن يبطن الكفر؟ قلت: لا بعد فيه؛ فـإن الزنـديق يمـوه كفـره ويـروج عقيدتـه الفاسـدة ويخرجها في الصورة الصحيحة، وهذا معنى إبطان الكفر فلا ينافي إظهاره الدعوى إلى الضلال وكونه معروفا بالإضلال اه ابن كمال....

* ففي فتاوى قارئ الهداية: الزنديق هو الذي يقول ببقاء الدهر ويعتقد أن الأموال والحرم مشتركة اه. وفي رسالة ابن كمال عن الإمام الغزالي في كتاب «التفرقة بين الإسلام والزندقة»: ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من يدعي التصوف أنه بلغ حالة بينه وبين الله تعالى أسقطت عنه الصلاة، وحل له شرب المسكر والمعاصي، وأكل مال السلطان، فهذا مما لا أشـك في وجـوب قتلـه إذ ضرره في الـدين أعظـم، ويفتح به باب من الإباحة لا ينسد، وضرر هذا فوق ضرر مـن يقـول بالإباحـة مطلقًـا، فإنـه يمتنـع عـن الإصغاء إليه لظهوركفره ....

* حكـــم الـــدروز، والتيامنـــة، والنـــصيرية، والإسـماعيلية. تنبيـه: يعلـم ممـا هنـا حكـم الـدروز والتيامنة؛ فإنهم في البلاد الشامية يظهرون الإسلام والصوم والصلاة مع أنهم يعتقدون تناسخ الأرواح وحل الخمر والزنا، وأن الألوهية تظهر في شخص بعـد شـخص الحـشر والـصوم والـصلاة والحـج، ويقولون المسمى به غير المعنى المراد، ويتكلمون في جناب نبينا كلمات فظيعة. وللعلامة المحقق عبد الرحمن العمادي فيهم فتوى مطولة، وذكر فيها أنهم ينتحلـون عقائـد النـصيرية والإسـماعيلية، الـذين يلقبون بالقرامطة والباطنية الذين ذكرهم صاحب المواقف، ونقل عن علماء المذاهب الأربعة أنه لا يحل إقرارهم في ديار الإسلام بجزية ولا غيرها، ولا تحـل منـاكحتهم ولا ذبـائحهم، وفـيهم فتـوى في الخيرية أيـضًا فراجعها: مطلب جملة من لا تقبل توبته، والحاصل أنهم يصدق عليهم اسم الزنديق والمنافق والملحد[٨].

* ومـن العلـماء الـذين جَـرَوا عـلى هـذا المـنهج أيـضًا الـشيخُ محمـد عابـد الـسندي رحمـه الله (ت١٢٥٧هـ)، فقد أطلق وصفَ الزندقة - في شرحه على «مسند الإمام أبي حنيفة» - على أولئك الذين يُقرُّون بألفاظ القرآن الكريم، ويتلون آياته، غير أنهم لا يؤمنون بحقائق معانيه ومقاصده؛ بل يصرفونها عـن مـدلولاتها الـشرعية بتـأويلاتٍ فاسـدة تُخـالف الحقائق المعلومة من الدين، وتناقض ما استقر عليه فهمُ سلف الأمة وأئمتها. وفي نظره أن مجرد الإقرار بألفاظ النصوص وتلاوتها لا يكفي في تحقيق الإيمان بها، ما دام صاحبُه يُفرغها من مضامينها الصحيحة، ويحملها على معانٍ مبتدعة تُفضي إلى إبطال حقـائقها الـشرعيـة، وهـذا هـو الـذي يـصدق عليـه وصـف الزندقة. وفيما يأتي نصُّه رحمه الله:

«قـال محمـد عابـد الـسندي (١٢٥٧هـ): (ثـم يخرجون منه)؛ أي من التكذيب بالقدر (إلى الزندقة) وهـي إبطـان الكفـر وإظهـار الإسـلام؛ كالمنـافق، وسبب خروجهم: أنهم لما أنكروا سابق علم الله تعالى فيما يجري في مخلوقاته، أفضاهم ذلك إلى إنكار علـم الله تعـالى مطلقًـا، فقـد أضـمروا هـذا الكفـر في قلوبهم، وأجروا كلمة التوحيد على ألسنتهم، وآمنوا بألفـاظ القـرآن، وقـرأوه، وكفـروا بحقيقتـه، فبهـذا الاعتبـار قـد أضـمروا خـلاف مـا أظهـروا، والله أعلم»[٩].

* ثم جاء دورُ علماء ديوبند، فواصلوا السير على هذا المنهج القويم في تقرير حقيقة الزندقة، وهو المنهج المـأثور عـن السلف الصالح؛ بل زادوا هذا الموضوع تحريرًا، وأوفوه مزيدًا من البيان والتأصيل بما يناسب ما استجد في عصرهم من شبهاتٍ وانحرافات، حتى استوعبوا جزئياته وكلياته، وأدَّوا حقَّه بحثًا وتحقيقًا. وكان في مقدمة هؤلاء إمامُ العصر العلامةُ محمد أنور شـاه الكـشميري رحمـه الله، الـذي يُعَـدُّ كتابـه «إكفـار الملحدين في ضروريات الدين» من أجمع ما أُلِّف في

هذا الباب، وأكثرها استيعابًا لمسائله، وقد حظي هذا الكتاب بقبولٍ واسع وتأييدٍ صريح من كبار علماء العصر، وأئمة التحقيق، ومشايخ العلم. ومن أبرز من كتبوا تقاريظهم وثناءهم عليه: الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، وحكيم الأمة أشرف علي التهانوي، ومفتي الهند الأكبر كفاية الله الدهلوي، ومفتي دارالعلوم ديوبند الأول عزيز الرحمن العثماني، وشيخ الإسلام شبير أحمد العثماني، ومفكر الإسلام محمد السجاد البهاري، والسيد مرتضى حسن الجاندبوري، ومولاناحبيب الرحمن العثماني، ومولانا رحيم الله البجنوري رحمهم الله تعالى أجمعين.

وهؤلاء جميعًا كانوا من أكابر علماء عصر العلامة الكشميري، أو من أقرانه في المنزلة العلمية، ولم يكونوا من تلامذته الذين يحملهم مجرد الانتساب أو التقليد على الموافقة؛ بل كانوا أئمةً مستقلين، لكل واحدٍ منهم مكانته العلمية، ورياسته الدينية، ومرجعيته المعروفة في أرجاء الهند آنذاك، حتى كان كل واحدٍ منهم في بلده إمامًا يُقتدى به، ومدرسةً علميةً قائمةً بذاتها؛ ومع ذلك فلم يُعرف عن أحدٍ منهم اختلاف أو اعتراض على أي جزء من هذا الكتاب، كما لم أقف على مخالفةٍ معتبرة من أحدٍ من علماء الأمة الموثوق بهم في سائر الأقطار، فكان ذلك شاهدًا على شيوع هذا الفهم بين علماء ذلك العصر، واستقرارهم عليه.

ثم واصل تلامذةُ العلامة الكشميري وغيرُهم من علماء الأمة، خدمةَ هذا الموضوع، فألَّفوا فيه كتبًا ورسائلَ وبحوثًا كثيرة، حتى تكوَّنت في هذا الباب مكتبةٌ علميةٌ زاخرة، فجزاهم الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

* * *

الهوامش:

(١) السنن الكبرى وفي ذيله الجوهر النقي ج ١٠ ص ٢٠٩ حديث نمبر:٢١٤٣٩ المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي مؤلف الجوهر النقي: علاء الدين علي بن عثمان المارديني الشهير بابن التركماني، الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية ببلدة حيدر آباد، الهند. الطبعة: الأولى ١٣٤٤هـ.

(٢) مسند الفردوس للديلمى ج ١ ص ١٦٦.

(٣) مسند الفردوس للديلمى ج ١ ص ٧٤.

(٤) مسند الصحابة في الكتب التسعة مسند عبد الله ابن عباس ج٢٩ ص ١٢١.

(٥) فيصلة التفرقة بين الإسلام والزندقة ص ٧٦ إلى ٨١ للإمام محمد بن محمد بن أحمد الغزالي (م ٥٠٥هـ)، دار المنهاج بيروت، ١٤٣٨هـ الموافق ٢٠١٧م.

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ١ ص ٢٢١ المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ تحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي.

(٧) المسوى شرح الموطا ج ٢ ص ٢٦٨، شاه ولي الله الدهلوي دارالكتب العلمية بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

(٨) حاشية رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار فقه أبو حنيفة ج ٤ ص ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٤ ابن عابدين. الناشر: دار الفكر ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م. بيروت.

(٩) المواهب اللطيفة شرح مسند الإمام أبي حنيفة ١/٢٢٦، ط. دار النوادر.

التوبـــــــــة

بقلم: الدكتور/ ياسر عبد الرحمن

التوبة واجبة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط:

أولها: الإقلاع عن المعصية.

ثانيها: أن يندم على فعلها.

ثالثها: أن يعزم أن لا يعود إليها أبدًا.

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته. وإن كانت تتعلق بآدمي فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالًا أو نحوه رده إليه، وإن كان حد قذف ونحوه طلب عفوه.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]. وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١]. ويقول تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

انتبه

يقول ابن الجوزي: يا من عمره كلما زاد نقص، يا ماثلا إلى الدنيا هل سلمت من النقص؟ يا مفرطًا في عمره هل بادرت الفرص؟ يا من إذا ارتقى في منهاج الهدى ثم لاح له الهدى نكص، من لك يوم الحشر عند نشر القصص؟ عجبًا لنفس أمست بالليل هاجعة، نسيت أهوال يوم الواقعة، ولأن تقر وعظها فتصغي لها سامعة، ثم تعود الزواجر عنها ضائعة، والنفوس غدت في كرم الكريم طامعة، وليست لها في حال من الأحوال طائعة، والأقدام سعت في الهوى في طرق شاسعة، بعد أن وضحت من الهدى سبل واسعة، والهمم شرعت في مشارع الهوى متنازعة، لم تكن مواعظ للعقول لها نافعة، وقلوب تضمر التوبة إذا فزعت بزواجر رادعة، ثم تعود إلى ما لا يحل مرارًا متتابعة[1].

عباد الله

تدبروا العواقب واحذروا قوة المناقب، اخشوا عقوبة المعاقب، وخافوا سلب السالب؛ فإنه والله

طالـب غالـب، أيـن الـذين قعـدوا في طلـب المنـى وقاموا، وداروا على دار الرحيل وحاموا؟ ما أقل ما لبثوا وما أوفى ما أقاموا! لقد وبخوا في نفوسهم في عقر قبورهم على ما أسلفوا ولاموا.

عتاب

يا من بأقذار الخطايا قد تلطخ، وبآهات البلايا قد تضمخ، يا من سمع كلام من لام ووبخ، يعقد عقد التوبة حتى إذا أمسى يفسخ، يا مطبقًا لسانه والملك يحصي وينسخ، يا من طير الهوى في صدره عشش وفرخ، كم أباد الموت ملوكًا كالجبال الشمخ، كم أزعج قواعد كانت في الكبر ترسخ، وأسكنهم ظلم اللحود ومن ورائهم برزخ، يا من قلبه من بدنه بالذنوب أوسخ، يا مبارزًا بالعظائم أتأمن أن يخسف بك أو تمسخ!!

استيقظ من نومك

أما والله لو علم الأنام
لماخُلقوا لما هجعوا وناموا
لقد خلقوا لأمر لو رأته
عيون قلوبهم تاهوا وهاموا
موت ثم قبر ثم حشر
وتوبيخ وأهوال عظام
ليوم الحشر قد عملت رجال
فصلّوا من مخافته وصاموا
ونحن إذا أمرنا أو نهينا
كأهل الكهف أيقاظ نيام[٢]

أيها العبد

لا شي أعز عليك من عمرك وأنت تضيعه، ولا عدو لك كالشيطان وأنت تطيعه، ولا أضر من موافقة نفسك وأنت تصافيها، ولا بضاعة سوى ساعات السلامة وأنت تسرف فيها، لقد مضى من عمرك الأطايب يا حاضر البدن والقلب غائب، و اجتماع العيب والشيب من المصائب، أين البكا لخوف العظيم الطالب؟.

وقفة مع النفس

كيف ترجو النجاة وتلهو بأسر الملاعب، إذا أتتك الأماني بظن كاذب، الموت صعب شديد مر المشارب، يلقى شره بكأس صدور الكتائب، فانظر لنفسك وانتظر قدوم العائب، يأتي بقهر ويرمي بسهم صائب، يا آملًا أن تبقى سليمًا من النوائب.

يا معرضًا

ابن آدم، كيف تظن أعمالك مشيدة، وأنت تعلم أنها مكيدة؟ وكيف تترك معاملة المولى، وأنت تعلم أنها مفيدة؟ وكيف تقصر في زادك، وقد تحققت أن الطريق بعيدة؟ يا معرضًا عنا إلى متى هذا الإعراض؟ يا غافلًا عن الموت، والعمر لا شك في انقراض؟.

أين من سبقك؟

أين من حصَّن الحصون المشيدة واحترس، وعمَّر الحدائق فبالغ وغرس، نصب لنفسه سرير العز وجلس، وبلغ المنتهى ورأى الملتمس، وظن في نفسه البقاء؛ ولكن خاب الظن في النفس، أزعجه والله هادم اللذات واختلس، ونازله بالقهر فأنزله عن الفرس، ووجه به إلى دار البلاء فانطمس، وتركه في ظلام ظلمة من الجهل والدنس، فالعاقل من أباد أيامه؛ فإن العواقب في خلس.

القطار يسير

يا من يرحل في كل يوم مرحلة، وكتابه قد حوى حتى الخردلة، ما ينتفع بالنذير والنذر متصلة، ولا يصغي إلى ناصح وقد عذله، ودروعه مخرقة والسهام مرسلة، نور الهدى قد بدا ولكن ما رآه ولا تأمله، وهو يؤمل البقاء ويرى مصير من قد أمله، قد انعكف بعد الشيب على العيب، كن كيف شئت فبين يديك الحساب والزلزلة، ونعم جلدك فلابد للديدان أن تأكله، فيا عجبًا من فتور مؤمن موقن بالجزاء والمسألة، استيقن.

الرسول ﷺ يستغفر

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٣).

الله يفرح بك

عن أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللّهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»(٤).

الله ينادي عليك

عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»(٥).

التوبة واجبة على الدوام

فإن الإنسان لا يخلو من معصية، ولو خلا عن معاص بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، فإن خلا عن ذلك لم يخل عن وساوس الشيطان بإيراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله، ولو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص ولا يسلم أحد من هذا النقص حتى تقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

احذر استصغار الذنب

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابة وقعت على أنفه(٦).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات(٧).

وقال بلال بن سعد: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت(٨).

لا تفرح بالصغيرة وتجهر بها

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن النبي ﷺ قال: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين. وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»(٩).

طريق التوبة:

قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله عز وجل إلا غفر له»(١٠).

احذر التسويف

يقول الغزالي: إن أكثر أهل النار من المسوفين، كرجل احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه(١١).

راجع حساباتك

أن ترد فكرك إلى أول يوم بلغت فيه الحلم، وتفتش عما مضى من عمرك سنةً سنةً، وشهرًا شهرًا، ويومًا يومًا، وتنظر إلى الطاعات وإلى المعاصي، وتفصل ديوان معاصيك، وتتوب إلى الله، وتعزم على فعل الحسنات، وينبغي أن تمحي كل سيئة بحسنة.

الرسول ﷺ يعلمنا

رسول الله ﷺ يستغفر، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، يقول ابن حجر: يحتمل أن يكون استغفاره عن اشتغاله بالأمور المباحة من أكل وشرب عن الاشتغال بذكر الله فيرى بذلك ذنبًا إلى المقام الأعلى؛ كما يفعل المصلي بعد صلاته يشرع في الاستغفار، وهل كان هو في ذنب، فأعلم أننا نحتاج إلى التوبة والاستغفار فإن لم يكن عن توبة الذنوب، فالاستغفار للتقصير في شكره وعبادته، والتوبةُ أول تشريع شرع للبشر، فعندما نسي آدم وأكل من الشجرة تاب إلى ربه.

استغفر

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم»(١٢).

استغفار يحتاج إلى استغفار

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥].

الاستغفار المطلوب هو الذي يحل عقدة الإصرار، فمن قال بلسانه: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غُفرت ذنوبه وإن كان فر من الزحف»(١٣).

أسئلة محيرة

يقول ابن القيم: هل في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي، فما الذي أخرج آدم من الجنة؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء؟ وما الذي سلط الريح على قوم عاد حتى ألقتهم موتى؟ وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة حتى قطعت قلوبهم؟ وما الذي رفع قوم لوط حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، فجعل عاليها سافلها ثم أتبعهم حجارة من السماء؟ وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب؟ وما الذي أغرق فرعون وقومه؟ وما الذي خسف بقارون وداره؟(١٤).

علامات التائب

منكسر القلب، غزير الدمع، حي الوجدان، قلق الأحشاء، صادق العبارة، جم المشاعر، جياش الفؤاد، مشبوب الضمير، في قلبه حرقة، وفي وجدانه لوعة، وفي وجهه أسى، وفي دمعه أسرار، إذا هدل الحمام بكى، وإذا صاح الطير ناح، وإذا شدا البلبل تذكر، وإذا لمع البرق اهتز قلبه، خوفًا ممن يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، يجد للطاعة حلاوةً، ويجد للعبادة طلاوةً، يجد للإيمان طعمًا، يجد للإقبال لذةً، يكتب من الدموع قصصًا، وينظم من الآهات أبياتًا، ويؤلف من البكاء خطابًا، التائب كالأم اختلس طفلها ثم اختلست طفلها من يد الأعداء أتدري كم فرحتها! أتقدر سعادتها؟!.

والتائب كالغائص في البحر، إذا نجا من اللجة إلى الشاطئ، بعد أن أيس من النجاة، ترى الذل قد علاه، والحزن قد وهاه، يذم نفسه على هواه، وبذلك صار عند الله ممدوحًا؛ لأنه تاب إلى الله توبة نصوحًا.

هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم

ما خلى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك، وخلى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنب إليك سبيلًا، فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان: أن يكلك الله إلى نفسك ويخلي بينك وبينه، والتوفيق أن لا يكلك إلى نفسك.

إلهي

لم يكن ما كان مني استهانةً بحقك، ولا جهلًا

بك، ولا إنكارًا لا طلاعك، ولا استهانةً بوعيدك، وإنما كان من غلبة الهوى، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك، واتكالًا على عفوك، وحسن ظن بك، ورجاء لكرمك، وطمعًا في سعة حلمك ورحمتك، وغرني بك الغَرور والنفس الأمارة بالسوء وبسترك المرخي عليَّ، وأعانني جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام إلا بك، ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك.

اتهم توبتك

يقول ابن القيم: يجب أن يخاف العبد أن توبته لم تقبل، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنهاتوبة علة، وأنه لا يشعر بها كتوبة أرباب الحوائج، أو أنه تاب محافظة على حاله فتاب للحال، لا خوفًا من ذي الجلال، أو أنه تاب للراحة من الكد في تحصيل الذنب أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه، أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في كون التوبة خوفًا من الله، وتعظيمًا لحرماته، وإجلالًا له، وخشيةً من سقوط المنزلة عنده.

ومن اتهام التوبة أيضًا ضعف العزيمة، والتفات القلب إلى الذنب الفينة بعد الفينة، وتذكر حلاوة مواقعته. ومن اتهام التوبة طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب حتى كأنه أعطي منشورًا بالأمان. ومن علاماتها جمود العين واستمرار الغفلة، وأن ما يستحدث بعد التوبة أعمالًا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة(١٥).

علامات التوبة المقبولة

- أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

- أنه لا يزال الخوف مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفة عين؛ فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠].

- انخلاع قلبه وتقطعه ندمًا وخوفًا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾[التوبة:١١٠]. قال: تقطعها بالتوبة، ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه، وهذا حقيقة التوبة؛ لأنه يتقطع قلبه حسرة وخوفًا، تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين، فلابد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة، ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضا كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ولا

تكون لغير المذنب لا تحصل بالجوع ولا بالرياضة، وإنما هي كسرة تامة، بين يدي الرب قد أحاطت به من جميع جوانبه(١٦).

يــا رب، أســألك بعــزك وذلي إلا رحمتنــي، وأسألك بقوتك وضعفي، وبغناك وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه.

حجة باطلة:

إن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك، فهلا كان حجة لعبدك وأمتك في ترك بعض حقك؟ بل إذا أساء إليك مسيء، وجنى عليك جان واحتج بالقدر: لاشتد غضبك عليه، وتضاعف جرمه عندك، ورأيت حجته داحضة ثم تحتج على ربك به، وتراه عذرًا لنفسك؟ فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟!

عجبًا لك:

الله أعطاك السمع والبصر والفؤاد، وعرفك الخير والشر، والنافع والضار، وأرسل إليك رسوله وأنزل إليك كتابه، ويسره للذكر والفهم والعمل، وأعانك بمدد من جنده الكرام يثبتونك ويحاربون عدوك، ويريدون منك ألا تميل إليه، وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم وموالاته دونهم، طرد إبليس عن سمائه، وأخرجه من جنته وأبعده من قربه؛ إذ لم يسجد لك وأنت في صلب أبيك آدم، لكرامتك عليه فعاداه وأبعده، ثم واليت عدوه وملت إليه وصالحته، وتتظلم مع ذلك وتشتكي الطرد والإبعاد.

بدل بيئتك:

عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض، فدل على راهب فأتاه، فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مئة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مئة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإنه بها أناس يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نَصَف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم – أي حكمًا – فقال: قيسوا ما بين

الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»[١٧].

وفي رواية في الصحيح: «فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهله»[١٨]. وفي رواية في الصحيح: «فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرَّبي وقال: قيسوا بينهما، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له»[١٩].

توبة صادقة:

روي أنه لحق بني إسرائيل قحط على عهد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فاجتمع الناس إليه فقالوا: يا كليم الله، ادع لنا ربك أن يسقينا الغيث.

فقام معهم وخرجوا إلى الصحراء، وهم سبعون ألفًا أو يزيدون، فقال موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إلهي، اسقنا غيثك، وانشر علينا رحمتك، وارحمنا بالأطفال الرضع والبهائم الرتع والمشايخ الركع، فما زادت السماء إلا تقشعًا والشمس إلا حرارة! فتعجب نبي الله موسى فأوحى الله إليه وقال: يا موسى، فيكم عبد يبارزني بالمعاصي منذ أربعين سنة، فناد في الناس حتى يخرج من بين أظهركم، فبه منعتكم.

فقال موسى: إلهي وسيدي، أنا عبد ضعيف وصوتي ضعيف، فأين يبلغ وهم سبعون ألفًا أو يزيدون؟ فأوحى الله إليه: منك النداء ومني البلاغ.

فقام مناديًا وقال: يا أيها العبد العاصي الذي يبارز الله منذ أربعين سنة أخرج من بين أظهرنا فبك منعنا المطر.

فقام العبد العاصي فنظر ذات اليمين وذات الشمال، فلم ير أحدًا خرج فعلم أنه المطلوب، وقال في نفسه: إن أنا خرجت من بين هذا الخلق افتضحت على رؤوس بني إسرائيل، وإن قعدت معهم منعوا لأجلي، فأدخل رأسه في ثيابه نادمًا على فعاله وقال:

إلهي وسيدي، عصيتك أربعين سنة وأمهلتني وقد أتيتك طائعًا فاقبلني، فلم يستتم الكلام حتى ارتفعت سحابة بيضاء فأمطرت كأفواه القرب.

فقال موسى: إلهي وسيدي، بماذا سقيتنا وما خرج من بين أظهرنا أحد؟ فقال: يا موسى، سقيتكم بالذي منعتكم. فقال موسى: إلهي، أرني هذا العبد الطائع. فقال: يا موسى، إني لم أفضحه وهو يعصيني، أأفضحه وهو يطيعني؟[٢٠].

توبة هارون الرشيد

حكي عن أبي يوسف -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- أنه أُشهد عنده أمير من عظماء جيش أمير المؤمنين هارون الرشيد، وكان من أقربائه، فلم يقبل شهادته، فشكا إلى هارون، فقال هارون: لم رددت شهادته؟ قال: لأني سمعته يومًا بين يديك يقول: أنا عبد أمير

المـؤمنين، فـإن كـان صـادقًا، فـلا شـهادة للعبـد، وإن كان كاذبًا، فلا شهادة للكاذب.

فقال هارون: إن شهدت فهل تقبل شهادتي؟ قال: لا.

فقال: ولم؟ قال: لأنك تتكبر على الله فلا تخرج إلى الجماعة، ولا تصلي مع عامة المسلمين، وهذا تكبر على الله، ولا يليق بالعبد هذا.

فتاب هارون على ذلك، واتخذ مسجدًا للعامة على بابه، وكان يخرج إليه عند كل صلاة.

توبة مالك بن دينار

روي عن مالك بن دينار أنه سئل عن سبب توبته، فقال: كنت شرطيا وكنت منهمكا على شرب الخمر، ثم إنني اشتريت جارية نفيسة، ووقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتا، فشغفت بها، فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حبا، وألفتني وألفتها، قال: فكنت إذا وضعت المسكر بين يدي جاءت إلي وجاذبتني عليه وهرقته على ثوبي، فلما تم لها سنتان ماتت، فأكمدني حزنها، فلما كانت ليلة النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة، بت ثملا من الخمر، ولم أصل فيها العشاء الآخرة، فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت، ونفخ في الصور، وبعثت القبور، وحشر الخلائق وأنا معهم، فسمعت حسًا من ورائي، فالتفت، فإذا أنا بتنين أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مشرعا نحوي، فمررت بين يديه هاربا فزعا مرعوبا، فمررت في طريقي بشيخ نقي الثوب طيب الرائحة فسلمت عليه فرد السلام، فقلت: أيها الشيخ، أجرني من هذا التنين أجارك الله، فبكى الشيخ وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوى مني وما أقدر عليه، ولكن مر وأسرع فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه، فوليت هاربا على وجهي، فصعدت على شُرُف من شرف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى هولها، وكدت أهوى فيها من فزع التنين، فصاح بي صائح: ارجع فلست من أهلها، فاطمأننت إلى قوله ورجعت ورجع التنين في طلبي، فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ سألتك أن تجيرني من هذا التنين فلم تفعل، فبكى الشيخ وقال: أنا ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل، فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك فيه وديعة فستنصرك، قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة، وفيه كوى مخرمة وستور معلقة، فلما نظرت إلى الجبل ولّيت إليه هاربا والتنين من ورائي، حتى إذا اقتربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوّه، فإذا الستور قد رفعت، فرأيت أطفالًا بوجوه كالأقمار، وقرب التنين مني فتحيرت في أمري، فصاح بعض الأطفال: ويحكم، أشرفوا، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد

أشرفت علي معهم، فلما رأتني بكت وقالت: أبي والله، ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت بين يدي، فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى فتعلقت بها ومدت يدها اليمنى إلى التنين فولى هاربا، ثم أجلستني وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي وقالت: يا أبت ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦] فبكيت وقلت: يا بنية، أخبريني عن التنين الذي أراد أن يهلكني، قالت: ذلك عملك السوء قويته فأراد أن يغرقك في نار جهنم، قلت: فأخبريني عن الشيخ الذي مررت به في طريقي، فقالت: يا أبت ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء، قلت: أي بنية، وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم، قال مالك: فانتبهت فزعًا وأصبحت فأرقت المسكر وكسرت الآنية وتبت إلى الله، وهذا كان سبب توبتي(٢١).

* * *

الهوامش:

(١) الكبائر، محمد بن عثمان الذهبي، دار الندوة الجديدة، بيروت، ص١٢٩.

(٢) السابق، ص١٣١.

(٣) البخاري، كتاب: الدعوات، باب: استغفار النبي ﷺ، ح(٥٩٤٨).

(٤) مسلم، كتاب: التوبة، باب: في الحض على التوبة والفرح بها، ح(٢٧٤٧).

(٥) مسلم، كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة، ح(٢٧٥٩).

(٦) الداء والدواء، ابن قيم الجوزية، دارالكتب العلمية، بيروت، ص٣٨.

(٧) البخاري، كتاب: الرقاق، باب: يتقى من محقرات الذنوب، (٦١٢٧).

(٨) طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلي، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ١/ ٣٣٠.

(٩) البخاري، كتاب: الأدب، باب: ستر المؤمن على نفسه، ح(٥٧٢١).

(١٠) الترمذي، كتاب: أبواب الصلاة، باب: الصلاة عند التوبة، ح(٤٠٦)، عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال الترمذي: حسن؛ وابن ماجه، ح(١٣٩٥)، قال الألباني: حسن.

(١١) إحياء علوم الدين، الغزالي، ٤/ ٥٨.

(١٢) مسلم، كتاب: التوبة، باب: سقوط الذنوب بالاستغفار توبة، ح(٢٧٤٩).

(١٣) أبوداود، كتاب: سجود القرآن، باب: في الاستغفار، ح(١٥١٧)؛ والترمذي، ح(٣٥٧٧)، قال الألباني: صحيح.

(١٤) انظر: الداء والدواء، ابن قيم الجوزية، ص٢٦-٢٧.

(١٥) انظر: مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ١/ ١٨٥.

(١٦) انظر: مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، ١/ ١٨٦.

(١٧) مسلم، كتاب: التوبة، باب: قبول التوبة للقاتل وإن كثر قتله، ح(٢٧٦٦).

(١٨) مسلم، كتاب: التوبة، باب: قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، ح(٢٧٦٦).

(١٩) البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم»، ح(٣٢٨٣).

(٢٠) التوابين، عبد الله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسي، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص٨١-٨٢.

(٢١) التوابين، ابن قدامة المقدسي، ص ٢٠٢-٢٠٤.

مئة قصة تربوية لطلاب اللغة العربية

المؤلف: فضيلة الشيخ محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري

أستاذ الحديث، ورئيس تحرير مجلة «الداعي» بدار العلوم ديوبند

بقلم: الدكتور المفتي/ اشتياق أحمد القاسمي(*)

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فإن اللغة إنما تؤخذ عن أهلها، وتُكتسب بكثرة استعمالها، وبنقل تعبيرات أربابها ومحاكاة أساليب الفصحاء من أهلها. ولايخفى أن وجود اللغة سابق على وضع قواعدها وضوابطها؛ إذ إن اللغة يستعملها الناس ويتوارثونها جيلًا بعد جيل، ثم تُستنبط لها القواعد وتُضبط لها الأصول. وهكذا كان شأن اللغة العربية؛ فقد كانت مستعملة، معروفة بين العرب منذ قرون، يتخاطبون بها، ويتفاهمون، وينظمون بها أشعارهم، ويخطبون بها في أنديتهم ومحافلهم، ثم دعت الحاجة بعد ذلك إلى ضبطها وتقعيدها، فكان من أمر النحو والتصريف وسائر علوم العربية ما هو معروف عند أهل العلم، وذلك في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ثم في عصور بني أمية وبني العباس.

ولقد رأينا من الناس من يبالغ في العناية بالقواعد والضوابط، فيحفظ من مسائل النحو والتصريف الشيء الكثير، ويعرف وجوه الإعراب وأبواب التصريف؛ ولكن إذا أراد أن يتكلم بالعربية أو يكتب بها أو يفهم كلام أهلها وجدته أعجز الناس عن ذلك؛ لأن القواعد وحدها لاتُنشئ في المرء ملكة لغوية، وإنما تُعين عليها وتضبطها إذا حصل أصلها.

ومن الحقائق التي لا ينبغي أن تخفى على طالب اللغة أن للقراءة والمطالعة دورا عظيمًا في اكتسابها؛ فإن الطالب إذا أكثر من قراءة النصوص العربية الصحيحة، وردد كلام الفصحاء، واجتهد في فهم العبارات والتراكيب، اجتمع له مع الأيام رصيد وافر من الألفاظ والتعبيرات، ونشأت في نفسه ملكة يعرف بها مواقع الكلام وطرائق التعبير.

(*) أستاذ الجامعة الإسلامية/دارالعلوم ديوبند

فالكتابة إنما تُحسن بكثرة الكتابة، والكلام إنما يُتقن بكثرة الكلام، والفهم إنما يقوى بكثرة القراءة والتدبر. والقراءة والفهم حجر الزاوية في اكتساب اللغة، ثم يترقى الطالب بعد ذلك إلى الكلام والتعبير، ثم إلى الكتابة والإنشاء. فأما أن يُقصد إلى الكتابة في أول الأمر، قبل أن ترسخ في النفس ألفاظ اللغة وأساليبها، فذلك قلب لترتيب الأمر رأسًا على عقب، وإخراج له عن سننه الطبيعي، فلا تتهيأ للمتعلم ملكة راسخة في اللغة.

فعلى طلاب العلم أن يعنوا بهذا الجانب عناية خاصةً، وأن يأخذوا اللغة عن أهلها، ويكثروا من قراءة كلام الفصحاء، ويتعرفوا على تعبيراتهم وأساليبهم؛ فإن اللغة ملكة، والملكة إنما تحصل بكثرة المران والممارسة وطول الصحبة.

مكانة اللغة العربية وأهميتها

ولا يخفى على أهل العلم مكانة اللغة العربية وفضلها؛ فإنها لغة الإسلام ولسانه الناطق، وبها نزل القرآن الكريم، وبها تكلم رسول الله ﷺ، وبها رويت سنته الشريفة، وبها دُوّنت أصول الشريعة وفروعها، وحُفظ تراث الأمة في علوم الدين والدنيا.

ومن رام التفقه في كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتبصر في مسائل الفقه وأصوله، والتقدم في علوم التفسير والحديث وأصولها، فلا غنى له عن العربية؛ بل لا بد له أن يجعلها من أولى وسائله وأعظم مطالبه؛ إذ كيف يتأتى لمن جهل لسان القوم أن يحيط بدقائق كلامهم، ويفقه وجوه خطابهم، ويميز بين دلالات ألفاظهم وتراكيبهم؟

ومن ثم فإن من زعم أنه قد بلغ في أحكام الإسلام مبلغًا من الرسوخ، وهو لا يزال بعيدًا عن العربية وآدابها وأساليبها، فقد أبعد النجعة، وضعف أساس دعواه؛ لأن العربية مفتاح عظيم من مفاتيح العلوم الإسلامية، وبها يُتوصل إلى فهم كثير من دقائق الكتاب والسنة وكلام الأئمة والعلماء.

وليست أهمية العربية مقصورة على العلوم الدينية فحسب؛ بل هي اليوم من اللغات العالمية التي يتسع نطاق استعمالها يومًا بعد يوم، وقد ازدادت الحاجة إليها في هذا العصر، وكثر المقبلون على تعلمها في مختلف البلاد والأقطار.

وقد صنف أهل العلم قديمًا وحديثًا كتبًا كثيرة في تعليم العربية وتيسير سبيل تعلمها، واختلفت طرائقهم في ذلك باختلاف أحوال المتعلمين وحاجاتهم. ومن أجل ذلك تبقى الحاجة قائمة إلى

كتب تجمع بين سلامة اللغة، وحسن الأسلوب، وتشويق الطالب، وتربيته على الأخلاق والآداب، وتفتح له بابا إلى عالم العربية الفصيحة.

كتاب «مئة قصة تربوية لطلاب اللغة العربية»

ومن الكتب التي وقعت بين يدي في هذا الباب كتاب فضيلة الشيخ محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري، الموسوم بـ«مئة قصة تربوية لطلاب اللغة العربية»، وقد انتخب فيه مئة قصة، جعل مدارها على التربية والتوجيه والإصلاح.

فمنها ما فيه تربية خلقية، ومنها ما يرمي إلى تنمية الذكاء والفطنة، ومنها ما يدعو إلى مكارم الأخلاق وحسن السيرة، ومنها ما يوقظ في النفس الشعور الديني، ويحبب إليها الإسلام وأحكامه و آدابه، إلى غير ذلك من المقاصد الحسنة والمعاني النافعة.

وقد جمع المؤلف هذه القصص من مصادر شتى؛ فمنها ما تُرجم من بعض الكتب، ومنها ما نُقل من كتب عربية، ثم صاغها ونسقها في هذا الكتاب، حتى اجتمع للقارئ فيها جمال القصة، وحسن العبرة، وفائدة اللغة.

وقد أهداني هذا الكتاب أحد الطلاب، وأنا مقبل على تدريس كتاب«مختصر المعاني» للعلامة سعد الدين التفتازاني رحمه الله، وهو شرح لكتاب«تلخيص المفتاح». فلما تناولته، بادرت إلى النظر فيه، ثم أخذت أقرأ منه ما أقرأ، فما هي إلا صفحات يسيرة حتى سررت به سرورا بالغا، وعلمت أن فضيلة الشيخ المباركفوري قد أسدى إلى طلاب العربية خدمة طيبة، وبذل في سبيل تعليمهم جهدًا مشكورًا.

وهذه القصص المئة قصصٌ نافعة، جامعة بين المتعة والفائدة، وبين حسن الأسلوب وجمال المعنى. وقد اعتنى المؤلف بضبط الألفاظ بالحركات، ليقرأها الطالب قراءة صحيحة، وشرح في الحواشي ما قد يخفى معناه أو يشكل فهمه، فكان ذلك عونا للطالب على حسن القراءة وصحة الفهم.

كما أن أسلوب الكتاب سهل عذب، وعبارته واضحة رشيقة، وألفاظه منتقاة، وتراكيبه محكمة متينة، وفيه من الألفاظ الجديدة والتعبيرات النافعة ما يزيد من ثروة الطالب اللغوية، ويفتح له أبوابًا من أساليب العربية لايزال في حاجة إلى معرفتها وممارستها.

وقد قرأت منه قصصا كثيرة، فوقعت مني موقعًا حسنًا، وأثرت في نفسي تأثيرًا ظاهرًا، ومنها:

«أعظم اعتذار في التاريخ» و«جائزة ملكية غالية» و«الوقت والمال» و«إلى المسجد» و«جزاء الطمع» و«نصف البطانية».

وقد استحسنت هذه القصص لما اشتملت عليه من معانٍ لطيفة، وعبر نافعة، وتوجيهات تربوية حسنة، فضلًا عما فيها من الأسلوب العربي الجميل. وأما قصة «نصف البطانية» فقد كنت قد قرأتها من قبل في كتاب من كتب تعليم اللغة الإنجليزية، فوجدت لها في هذا الكتاب عرضًا عربيًا حسنًا، وصياغة مناسبة لطالب العربية.

وقد أعجبني في عمل الشيخ المباركفوري حسن ترتيبه، وجودة اختياره، وجمال أسلوبه، ودقة انتقائه للألفاظ والتراكيب. فقد جمع في كتابه بين تعليم اللغة، والتربية، والتشويق، وهذه خصال إذا اجتمعت في كتاب كان أبلغ في نفع الطالب وأدعى إلى إقباله عليه.

وطلاب العربية اليوم في أمس الحاجة إلى مثل هذه الكتب: كتبٍ لا تقف بهم عند حدود القواعد والمسائل المجردة؛ بل تنقلهم إلى ميدان اللغة الحية، وتعودهم قراءة النصوص، وتزيد من رصيد ألفاظهم، وتعرفهم بتراكيب العرب وأساليبهم، وتربي في نفوسهم ذوق العربية، حتى تنشأ لهم بها ملكة صحيحة، ويقربوا من طريقة أهلها في الفهم والتعبير.

ومن هنا أرى أن هذا الكتاب عمل طيب، وجهد مشكور، وخطوة موفقة في خدمة اللغة العربية وطلابها، ولاسيما أن مؤلفه جمع فيه بين المقصد التعليمي والمقصد التربوي، فلم يجعل اللغة غاية مجردة؛ بل جعلها وسيلة إلى العلم والأدب والصلاح.

فجزى الله مؤلفه خير الجزاء، وبارك في علمه وعمله، ونفع بكتابه طلاب العربية، وكتب له القبول في الأرض، وأقبل عليه طلاب العلم إقبالًا حسنًا، وجعله الله ذخرًا له في الدارين، ومنارًا يهتدي به الناشئة من أبناء الأمة في طريق العلم واللغة والأدب.

وأسأل الله سبحانه أن يبارك في هذه الخدمة، وأن ينفع بها طلاب العلم، وأن يوفق أبناء الأمة للعناية بلغة القرآن والسنة، وأن يفتح لهم بها أبواب الفهم والعلم والعمل، وأن يجزي المؤلف أحسن ما يجزي به عباده المحسنين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

وأكثر ما لفت نظري التركيز غير العادي على نطق الكلمات نطقًا صحيحًا، والعناية الزايدة بأداء الأصوات أداء دقيقًا يثير العجب، ويبعث على الغبطة والسرور. وتعمدت أن أدقق الاستماع لأدائهم، فأقول: ليت أنهم أدوا الصوت كذا، وتركوا أداءه كذا، فعجزت أن أقول لما فعلوه: ليتهم تركوه، أو لما تركوه: ليتهم فعلوه... إنجاز كبير كبير بمعناه.

وتمشي المعاهد إلى العمران مشيًا أو تسعى سعيًا، إن نشطت وتحفزت وانتعشت، وأما هذا المعهد فقد طار إليه طيرانًا. ولقد طرق سمعي قولُ أحد كبار العلماء فيه: لم أصدق بما كان يبلغني من رقيه وازدهاره، لولا أني رأيته فيه بأم عيني، ولمسته بيدي في بعض الزورات.

والناظر إلى مثل هذه النشاطات اللغوية من غير أن يرجى من ورائها جزاء أو شكور- لايملك إلا أن يقول بملء فيه، ومن غير دغدغة: إن العربية ليست دخيلة أو أجنبية وغريبة في هذه البلاد الأعجمية؛ بل في دارها وبين حماتها وأنصارها، في حين يكاد يتخلى عنها كثير من الدولة العربية. ومن البدهيات أن المرء حين يدخل بلدًا من البلاد أول ما يحتاج إليه هو معرفة لغتها، ليتواصل بها مع أهلها ويتعامل معهم، ولكن أقول - والقلب يعصره الأسى والألم الممض-: إنك تدخل اليوم بعض البلاد العربية ؛ بل والإسلامية منها- فتستغني عن لغة أهلها؛ بل يوحي موقف بعضهم إلى أنه يرى عارًا وشنارًا على نفسه أن يتحدث إلى القوم بلغتهم العربية، ويتبجح بعضُهم بحشر الكلمات الأجنبية في كلامه العربي، حتى يوهمك أنه يقدر على اللغة الأجنبية أكثر من العربية، وأنه يملك عينين دون صاحبه؛ فقد فقد كثير منا الغيرة على اللغة العربية.

ويحضرني هنا ماقاله أحد أساتذتي في بعض الجامعات الإسلامية، وكان ممن تعلم في أوربا ما شاء الله أن يتعلم، فذكر لي أن أستاذه في مرحلة من مراحل الدراسات العليا كان أوربيًّا في الصميم، ومتصلبًا في أوربيته لدرجة أنه - رغم تمكنه من اللغة العربية - كان لايرضى لنفسه أن يتحدث إلى تلامذته بها، ولايتحدث إلا بالأوربية انطلاقًا من غيرته عليها، وإن أدى ذلك في كثير من الأحيان إلى الإحراج الشديد لتلامذته العرب.

وهذه الجهود التي لمحت إليها في السطور السابقة تؤكد أن اللغة العربية ممتدة الجذور مع الماضي، قوية الأواخي مع العصر الراهن، ومديدة الأفنان في المستقبل؛ فقد دخلت العربية إلى كثير من أصقاعها مع دخول الإسلام، وضربت بجرانها، واستقرت فيها، فلاتريم ولاتتزحزح ولاتبرح ما أقام الإسلام فيها، وتغلغلت في النفوس وسرت في الأرواح والمهج سريان الدم في الشرايين، وانسابت بين الشفاه والأفواه، وتداخلت مع الحواس والمشاعر.

* * *



من إعجاز لغة القرآن

لقد أكدت العربية إعجازها – ليس فقط على المستويات العلمية– ؛ بل على مستوى العموم و الشمول والانتشار حتى في مناطق نائية في بلاد غير عربية، وبعيدة عن مراكزها المعروفة الشهيرة في العالم؛ إنه من إعجاز هذه اللغة القيمة المصطفاة لتكون وعاءً لكلام الله تعالى الخالق البارئ، وحضنًا حصينًا لأحاديث نبيه صلوات الله وسلامه عليه، ولقد اعتنى بها المسلمون – ولايزالون – حتى في بلاد العجم مع شحّ الإمكانيات، وقلة الوسائل والآليات والأدوات، والتغاضي المشين من الجهات التي كان عليها قبلَ غيرها العنايةُ بها، دون أن يرجوا في معظم الأحوال والأوضاع كسبَ الأرباح المادية من وراء دراستها وتعلمها إلا الفهم الصحيح لكتاب ربهم وحديث نبيهم.

ولقد رأيت عجبًا أعجب من العجب، وأغرب من عنقاء مغرب، حين زرت معهدًا عربيًّا فتيًّا شابًّا في مكان بعيد عن المدن، تقلب الطرف فيما حوله فلا تجد إلا حقولا، ومزارع، وأودية، وأدغالا، وبساتين، و حدائق واسعة الأرجاء مترامية الجنبات، تدور فيها الأنظار فتضل، وترجع خاسئة وهي حسير، وتجول فيه الأفكار فتكلّ وتملّ، يخطو الداخل إليه أول خطواته، فإذا هو بأطفال أحداث الأسنان، تعرف في وجوههم حب اللغة العربية والحرص عليها حرصًا أشد من يد البخيل على صاع الذهب، اتخذوا اللغة العربية شعارهم و دثارهم، فهي في كثير من الأحيان أداة تخاطبهم وتواصلهم، وأحاديثهم وأسمارهم، فقد وضع المعهد فيما يخص الدراسة، والتعليم، والتربية، والإشراف نظامًا دقيقًا صارمًا لامساومة عليه، و لايرضى عنه بديلا، مهما كلفه ذلك، ويركز على الجودة أكثر من الكمية والعدد، الأمر الذي عاد موضةً لكثير من المعاهد.

(البقية على ص ٥٥)

أبو عائض القاسمي المباركفوري